بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنعام

وسئل شيخ الإسلام عن أسباب نزول سورة الأنعام:

(ما تقول السادة العلماء وأئمة الدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين في سورة الأنعام هل أنزلت على النبي ﷺ جملة واحدة أم آيات متفرقة متتابعة وقد وجد في كتاب الوسيط في تفسير القرآن العظيم لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي[١] أخبرنا أبو سعيد محمد بن علي الخفاف حدثنا أبو عمر محمد بن جعفر بن مطر ثنا إبراهيم بن شريك الأسدي ثنا أحمد بن يونس أنبأنا سلام بن سليم المدائني أنبأنا هارون بن كثير عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «أنزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة وتبعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل» أفتونا مأجورين.

فأجاب الشيخ أحمد بن تيمية رضي الله عنه وعن سائر العلماء:

(الحمد لله: قد ذكر عن طائفة من السلف أنها نزلت جملة واحدة[٢] وذكره الإمام أحمد بإسناده عن جماعة ولكن الإسناد المذكور عن النبي ﷺ موضوع والأحاديث التي يرويها الثعلبي[٣]. والواحدي بهذا الإسناد موضوعة[٤] وبكل حال فلا تقرأ في شهر

---

(١) هو الإمام أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي بن متوبة الواحدي النيسابوري الشافعي ولد سنة (٣٩٨هـ) بنيسابور وبها نشأ، أشهر شيوخه الثعلبي المفسر المتوفى سنة (٤٢٧هـ)، اشتهر بتفسيره للقرآن وله في التفسير ثلاثة تفاسير البسيط (مخطوط) والوسيط والوجيز مطبوعان: «اللباب في تهذيب الأنساب» ابن الأثير (٣/ ٩٦) شذرات الذهب (٢/ ٢٢٣) طبقات المفسرين (١/ ٩٤٩٦)، «سير أعلام النبلاء» (١٨/ ٣٣٩).

(٢) وردت آثار كثيرة عن بعض الصحابة والتابعين تدل على أن هذا الكلام له أصل صحيح، يراجع لذلك الدر المنثور (٣/ ٢)، ابن كثير (٢/ ١٢٢) وغيره من التفاسير.

(٣) هو المفسر المشهور صاحب التفسير المشهور وهو شيخ الواحدي وقد طبع تفسيره، توفي سنة ٤٢٧هـ.

(٤) ذكر ذلك ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٢٤٠)، «تنزيه الشريعة» ابن عراق (١/ ٢٨٥)، الفوائد المجموعة (٢٩٦) للشوكاني، «اللآلي المصنوعة» للسيوطي (١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧)، «المنار المنيف» لابن القيم.

رمضان إلا كما تقرأ في غيره، لا تقرأ جملة واحدة دون غيرها كما يفعله بعض الناس يقرؤونها وحدها في الركعة الثانية فإن ذلك بدعة غير مستحبة باتفاق العلماء. والله أعلم) ا.هـ[١].

وقال في مجمل السورة:

(وسورة الأنعام سورة عظيمة مشتملة على أُصول الإيمان) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وهذا قد ذكره الله في سورة الأنعام التي هي مكية باتفاق العلماء، ليس كما ظنه أصحاب مالك والشافعي أنها من آخر القرآن نزولاً، وإنما سورة المائدة هي المتأخرة، وقد قال الله فيها: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٤]، فعلم أن عدم التحريم المذكور في سورة الأنعام ليس تحليلاً، وإنما هو عفو. فتحريم رسول الله ﷺ رافع للعفو ليس نسخاً للقرآن) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (والمشركون شر من اليهود والنصارى، ولهذا وصفهم الله تعالى في القرآن في سورتي الأنعام والأعراف بخلاف دين الإسلام: بأن ﴿لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (وقد جمع سبحانه في هذه السورة وفي الأنعام وفي غيرهما ذنوب المشركين في نوعين:

أحدهما: أمر بما لم يأمر الله به كالشرك ونهى عما لم ينه الله عنه كتحريم الطيبات فالأول شرع من الدين ما لم يأذن به الله.

والثاني: تحريم لما لم يحرمه الله.

وكذلك في الحديث الصحيح حديث عياض بن حمار: عن النبي ﷺ: عن الله تعالى: «إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين، فحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»[٥]) ا.هـ[٦].

---

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى مخطوط (تحت الطبع).
(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٧٠٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٢١/ ٨).
(٤) نظرية العقد (١٢ ـ ١٣).
(٥) مسلم (٢٨٦٥).
(٦) مجموع الفتاوى (١/ ٨٦ ـ ٨٧) وقوله (هذه) يعني سورة الأعراف.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾.

(وأما أهل التوحيد الذين يعبدون الله مخلصين له الدين فإن ما في قلوبهم من محبة الله لا يماثله فيه غيرها، ولهذا كان الرب محموداً حمداً مطلقاً على كل ما فعله؛ وحمداً خاصاً على إحسانه إلى الحامد، فهذا حمد الشكر، والأول حمده على ما فعله كما قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ الآية والحمد ضد الذم، والحمد خبر بمحاسن المحمود مقرون بمحبته، ولا يكون حمد لمحمود إلا مع محبته، ولا ذم لمذموم إلا مع بغضه، وهو سبحانه له الحمد في الأولى والآخرة، فلا تكون عبادة إلا بحب المعبود، ولا يكون حمد إلا بحب المحمود، وهو سبحانه المعبود المحمود، ولهذا كانت الخطب في الجمع والأعياد وغير ذلك مشتملة على هذين الأصلين: تحميده وتوحيده، وأفضل الذكر لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء الحمد لله) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ بين أنه خلق السموات والأرض، وأنه خلق الظلمات والنور؛ لأن الجعل هو التصيير، يقال: جعل كذا إذا صيره فذكر أنه خلق السموات والأرض، وأنه جعل الظلمات والنور؛ لأن الظلمات والنور مجعولة من الشمس والقمر: المخلوقة في السموات؛ وليس الظلمات والنور والليل والنهار جسماً قائماً بنفسه، ولكنه صفة وعرض قائم بغيره. «فالنور» هو شعاع الشمس وضوؤها الذي ينشره الله في الهواء، وعلى الأرض) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يجعلون له عدلاً أي نداً في الإلهية، وإن كانوا يعلمون أنه ليس من جنس الرب سبحانه) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (أي يعدلون به غيره، يقال: عَدَل به أي جعله عديلاً لكذا ومثلاً له) ا.هـ[٤].

---

(١) طريق الوصول (٢١١).
(٢) مجموع الفتاوى (٦/٥٩٨).
(٣) مجموع الفتاوى (١٧/١٣٧).
(٤) جامع المسائل (٣/٢٧٩).

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾﴾.

سئل ﷺ: عن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ [فاطر: ١١] وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن﴾ [فاطر: ١١] وقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرعد] هل المحو والإثبات في اللوح المحفوظ والكتاب الذي جاء في الصحيح «إن الله تعالى كتب كتاباً فهو عنده على عرشه»[(١)] الحديث. وقد جاء: «جف القلم»[(٢)] فما معنى ذلك في المحو والإثبات؟.

وهل شرع في الدعاء أن يقول: «اللهم إن كنت كتبتني كذا فامحني واكتبني كذا» فإنك قلت: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾؟ وهل صح أن عمر كان يدعو بمثل هذا؟ وهل الصحيح عندكم أن العمر يزيد بصلة الرحم، كما جاء في الحديث؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب ﷺ: الحمد لله رب العالمين.

أما قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ فالأجل الأول هو أجل كل عبد؛ الذي ينقضي به عمره، والأجل المسمى عنده هو أجل القيامة العامة ولهذا قال: ﴿مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ فإن وقت الساعة لا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل، كما قال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧] بخلاف ما إذا قال: ﴿مُّسَمًّى﴾ كقوله: ﴿إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [البقرة: ٢٨٢] إذ لم يقيد بأنه مسمى عنده، فقد يعرفه العباد، وأما أجل الموت فهذا تعرفه الملائكة الذين يكتبون رزق العبد، وأجله وعمله وشقي أو سعيد، كما قال في الصحيحين عن ابن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق ـ إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات: فيقال: اكتب رزقه، وأجله وعمله، وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح»[(٣)] فهذا الأجل الذي هو أجل الموت قد يعلمه الله لمن شاء من عباده. وأما أجل القيامة المسمى عنده فلا يعلمه إلا هو)[(٤)].

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾﴾.

قال رحمه الله: (ولكن معنى قول الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾،

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مرّ تخريجه.
(٣) البخاري (٣٢٠٨)، ومسلم (٢٦٤٣).
(٤) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩).

يقول: هو إله من في السموات وإله من في الأرض، وهو الله على العرش، وقد أحاط الله بعلمه ما دون العرش، لا يخلو من علم الله مكان، ولا يكون علم الله في مكان دون مكان.

وذلك قوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]) ا.هـ(١).

قال رحمه الله: (قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ على أحد القولين، على وقف من يقف عند قوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ فإن المعنى هو في السموات الله، وفي الأرض الله، ليس فيهما من هو الله غيره.

وهذا وإن كان مشابهاً لقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] فهو أبلغ منه. ونظيره قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]) ا.هـ(٢).

وقال رحمه الله: (وهذا الإيمان الذي في القلوب هو «المثل الأعلى» الذي له في السموات والأرض، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾، وقد غلط في هذه الآية طائفة من الصوفية والفلاسفة وغيرهم: فجعلوه حلول الذات واتحادها بالعابد والعارف، من جنس قول النصارى في المسيح وهو قول باطل كما قد بسط في موضعه) ا.هـ(٣).

وقال رحمه الله: قال تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾.

أخبر سبحانه بأن الآيات تأتيهم، وما تأتيهم من آية إلا أعرضوا عنها، وأنهم

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٣١١)، بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٥٤٥ ـ ٥٤٦) ـ درء التعارض (٦/ ١٤٠).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٤٠٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦).

بتكذيبهم الحق سوف يرون صدق ما جاء به الرسول، كما أهلك من قبلهم بذنوبهم التي هي تكذيب الرسول، فإن الله يقول:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص].

وأخبر بشدة كفرهم، بأنه لو أنزل عليهم كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا منهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. وبين سبحانه أنه لو جعل الرسول ملكاً لجعله على صورة الرجل، إذ كانوا لا يطيقون أن يروا الملائكة في صورهم، وحينئذ فكان اللبس يقع لظنهم أن الرسول بشر لا ملك) ا.هـ[1].

وقال أيضاً: (قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ قال غير واحد من السلف: هم لا يطيقون أن يروا الملك في صورته، فلو أنزلنا إليهم ملكاً لجعلناه في صورة بشر، وحينئذ كان يشتبه عليهم هل هو ملك أو بشر، فما كانوا ينتفعون بإرسال الملك إليهم، فأرسلنا إليهم بشراً من جنسهم يمكنهم رؤيته والتلقي عنه، وكان هذا من تمام الإحسان إلى الخلق والرحمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير]) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾، وروى ابن أبي حاتم[3]، عن أبي زرعة، عن منجاب بن الحارث، عن بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: لأهلكناهم، ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾: لا يؤخرون. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ يقول: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة. وكذلك قال غيره من المفسرين. وللبسنا عليهم، قالوا: لخلطنا ولشبهنا عليهم ما يخلطون وَيُشَبِّهون على أنفسهم، حتى يشكوا فلا يدروا أملك هو أو آدمي.

فبين سبحانه أنه لو أنزل ملكاً لم يمكنهم أن يروه إلا في صورة بشر، كما كان جبريل يأتي النبي ﷺ إذ رآه الناس في صورة دحية الكلبي، أو في صورة أعرابي لما

---

(١) الجواب الصحيح (٦/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥). (٢) منهاج السنة (٢/ ٣٣٣).

(٣) ابن جرير (١٣٠٨٣) وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر (٣/ ٥) وكذا لأبي الشيخ.

بتكذيبهم الحق سوف يرون صدق ما جاء به الرسول، كما أهلك من قبلهم بذنوبهم التي هي تكذيب الرسول، فإن الله يقول:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص].

وأخبر بشدة كفرهم، بأنه لو أنزل عليهم كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا منهم: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. وبين سبحانه أنه لو جعل الرسول ملكاً لجعله على صورة الرجل، إذ كانوا لا يطيقون أن يروا الملائكة في صورهم، وحينئذ فكان اللبس يقع لظنهم أن الرسول بشر لا ملك) ا.هـ[1].

وقال أيضاً: (قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ قال غير واحد من السلف: هم لا يطيقون أن يروا الملك في صورته، فلو أنزلنا إليهم ملكاً لجعلناه في صورة بشر، وحينئذ كان يشتبه عليهم هل هو ملك أو بشر، فما كانوا ينتفعون بإرسال الملك إليهم، فأرسلنا إليهم بشراً من جنسهم يمكنهم رؤيته والتلقي عنه، وكان هذا من تمام الإحسان إلى الخلق والرحمة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ [التكوير]) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾، وروى ابن أبي حاتم[3]، عن أبي زرعة، عن منجاب بن الحارث، عن بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾: لأهلكناهم، ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾: لا يؤخرون. ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ يقول: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل؛ لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة. وكذلك قال غيره من المفسرين. وللبسنا عليهم، قالوا: لخلطنا ولشبهنا عليهم ما يخلطون وَيُشَبِّهون على أنفسهم، حتى يشكوا فلا يدروا أملك هو أو آدمي.

فبين سبحانه أنه لو أنزل ملكاً لم يمكنهم أن يروه إلا في صورة بشر، كما كان جبريل يأتي النبي ﷺ إذ رآه الناس في صورة دحية الكلبي، أو في صورة أعرابي لما

---

(١) الجواب الصحيح (٦/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥). (٢) منهاج السنة (٢/ ٣٣٣).

(٣) ابن جرير (١٣٠٨٣) وعزاه لابن أبي حاتم السيوطي في الدر (٣/ ٥) وكذا لأبي الشيخ.

أتاه وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان. وكذلك لما أتوا إبراهيم ولوطاً ورأتهم سارة وقوم لوطٍ لم يأتوا إلا في صورة رجال وكذلك لما أتى جبريل مريم لينفخ فيها أتاها في صورة رجل، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم] وإذا كانوا لا يستطيعون أن يروا الملك إلا في صورة رجل فلو جاءهم لقالوا هذا بشر، ليس بملك، واشتبه الأمر واختلط، والتبس الأمر عليهم فلم تكن هذه شبهة تنقطع بإنزال ملك) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (قاعدة شريفة في تفسير قوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾[2] [الأنعام: ١٤].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

من كلام شيخنا الجديد الذي كتبه بقلعة دمشق في آخر عمره.

الحمد لله نستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً.

فصل

في قوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ[3] ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، القراءة المتواترة التي بها يقرأ جماهير المسلمين قديماً وحديثاً وهي قراءة العشرة وغيرهم ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾، وروي عن طائفة أنهم قرأوا: (يُطعم ولا يَطعم) بفتح الياء، قال أبو الفرج: «وقرأ عكرمة والأعمش (ولا يَطْعَم) بفتح الياء؛ قال الزجّاج[4]: وهذا الاختيار عند البُصراء بالعربية ومعناه يرزق ويطعم ولا يأكل[5].

قلت: الصوابُ المقطوع به أنّ القراءة المشهورة المتواترة أرجحُ من هذه، فإن تلك القراءة لو كانت أرجح من هذه لكانت الأمة قد نقلت بالتواتر القراءة المرجوحة،

---

(١) الرد على المنطقيين (٥٣٩).

(٢) هذه رسالة مخطوطة حققتها وأودعتها مع مجموعة رسائل لم تطبع لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

(٣) في المخطوطة (أفغير الله).

(٤) معاني القرآن للزجاج (٢/ ٢٣٣).

(٥) زاد المسير (٣/ ١١) لابن الجوزي.

والقراءة التي هي أحبُ القراءتين إلى الله ليست معلومة للأمة، ولا مشهوداً بها على الله، ولا منقولة نقلاً متواتراً؛ فتكون الأمة قد حفظت المرجوح ولم تحفظ الأحب إلى الله، الأفضل عند الله، وهذا عيب في الأمة ونقص فيها، ثمّ هو خلاف قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، فإنه على قول هؤلاء يكون الذكر الأفضل الذي نزله، ما حفظه حفظاً يعلم به أنه منزل؛ كما يعلم الذكر المفضول عندهم، وأيضاً فللنّاس في هذه القراءة وأمثالها مما لم يتواتر قولان، منهم من يقول: هذه تشهد بأنها كذب، قالوا: وكلما لم يقطع بأنه قرآن، فإنه يقطع بأنه ليس بقرآن، قالوا: ولا يجوز أن يكون قرآن منقولاً بالظنّ وأخبار الآحاد، فإنّا إن جوزنا ذلك جاز أن يكون ثم قرآن كثير غير هذا لم يتواتر، قالوا: وهذا مما تحيله العادة، فإن الهمم والدواعي متوفرة على نقل القرآن، فكما لا يجوز اتفاقهم علىٰ نقل كذب، لا يجوز اتفاقهم على كتمان صدق.

فعلى قول هؤلاء يُقطع بأنّ هذه وأمثالها كذب، فيمتنع أن يكون أفضل من القرآن الصدق.

والقول الثاني: قول من يجوز أن تكون هذه قرآناً وإن لم ينقل بالتواتر، وكذلك يقول هؤلاء في كثير من الحروف التي يقرأ بها في السبعة والعشرة لا يشترط فيها التواتر، وقد يقولون: إنّ التواتر منتف أو ممتنع فيها، ويقولون: التواتر الذي لا ريب فيه ما تضمنه مصحف عثمان من الحروف، وأمّا كيفيات الأداء مثل تليين الهمزة، ومثل الإمالة والإدغام، فهذه مما يسوغ للصحابة أن يقرؤوا فيها بلغاتهم، لا يجب أن يكون النبي ﷺ تلفَّظ بهذه الوجوه المتنوعة كلها؛ بل القطع بانتفاء هذا أولى من القطع بثبوته. وما كان تلفظه به على وجهين كلاهما صحيح المعنى مثل قوله: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ و(يعملون) [البقرة: ٧٤، ١٤٤، ١٤٩][1]، وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ﴿إِلَّا أَنْ يُخافا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾[2] فهذه يكتفى فيها بالنقل الثابت وإن لم يكن متواتراً؛ كما يكتفى بمثل ذلك في إثبات الأحكام والحلال والحرام، وهو أهم من ضبط التاء والياء، فإن الله ﷻ ليس بغافل عمّا يعمل المخاطبون بالقرآن، ولا عما يعمل غيرهم، وكلا المعنيين حق قد دلّ عليه القرآن في مواضع، فلا يضر أن لا يتواتر دلالة هذا اللفظ عليه، بخلاف الحلال والحرام الذي لا يُعلم إلا بالخبر الذي ليس بمتواتر.

---

(١) قرأ الموضع الأول بالغيب ابن كثير، وقرأ الباقون بالخطاب، وقرأ الموضع الثاني بالخطاب أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وروح، وقرأ الباقون بالغيب. وقرأ الموضع الثالث بالغيب أبو عمرو، وقرأ الباقون بالخطاب. انظر النشر (٢/ ٢١٧، ٢٢٣).

(٢) قرأ بضم الياء أبو جعفر ويعقوب وحمزة، وقرأ الباقون بفتحها. النشر (٢/ ٢٢٧).

والعادة والشرع أوجب أن يُنقل القرآن نقلاً متواتراً، كما نقلت جملة الشريعة نقلاً متواتراً؛ مثل إيجاب الصلوات الخمس وأن صلاة الحضر أربع إلّا المغرب والفجر، وأنّه يخافت في صلاة النهار ويجهر في صلاة الليل ويجهر في صلاة الفجر وإن قيل إنها من صلاة النهار وأنها ركعتان حضراً أو سفراً والمغرب ثلاث حضراً وسفراً ونحو ذلك. ثم كثير من الأحكام التي يعملها الخاصة دون العامة تعلم بالأخبار التي يعلمها الخاصة، كذلك بعض الحروف التي يضبطها الخاصة من القرّاء قد تكون من هذا الباب. وعلى هذا الوجه، فيمتنع أن يكون النبي ﷺ كان يقرأ بتلك القراءة أكثر، ويُعلّمها لأمته أكثر، وجماهير الأمة لم ينقلها ولم تعرفها، فنقل جمهور الأمة لها خلفاً عن سلف توجب أنها كانت أكثر وأشهر من قراءة النبي ﷺ إن كان قرأ بالأخرى، وإن كان لم يقرأ بالأخرى لم تعدل بهذه، فنحن نشهد شهادةً قاطعة أنّه قرأ بهذه، وأن تلك إما أنه لم يقرأ بها أو قرأ بها قليلاً، والغالب عليه قراءته بهذه؛ لأنه يمتنع عادة وشرعاً أن تكون قراءته بتلك أكثر وجمهور الأمة لم ينقل عنه ما هو أغلب عليه، ونقل عنه ما كان قليلاً منه، فهذا من جهة نقل إعراب القرآن ولفظه.

فصل

وأما من جهة معناه ومفهومه فيقال: نفس القراءة المتواترة أرجح وأظهر وأتم وذلك من وجوه:

أحدها: أنّ معنى هذه موافق لمعنى قوله في الآية الأخرى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات]، فقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾، نفي لإرادته منهم أن يطعموه، فهو نفي لإطعامهم، وهذا موافق لقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ على البناء للمفعول، ولو أُريد نظير تلك القراءة لقال: (فإني لا أطعم) ونحو ذلك، ولا ريب أنه سبحانه منزه عن الأكل والشرب، بل الملائكة لا تأكل ولا تشرب فكيف بالسبّوح القدوس رب الملائكة والروح، وهذا المعنى قد دلّ عليه في مواضع، منها اسمه (الصمد) فإن من معناه الذي لا يأكل ولا يشرب، كما قد بُين هذا في تفسير هذه السورة[1]، ومنها قوله: ﴿مَّا الْمَسِيحُ

(١) معنى الصمد ذكره شيخ الإسلام بهذا المعنى في تفسير سورة الإخلاص، وذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٩/٢٦٨) هذا المعنى المذكور وعزاه لابن عباس والحسن ومجاهد وابن جبير وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي. وقال ابن قتيبة: فكأن الدال من هذا التفسير مبدلة من تائه، والمصمت من هذا.

ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ [المائدة] وهو سبحانه ذكر هذا بعد قوله: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ [المائدة]، فهذا كلام في سياق نفي الإلهية عن المسيح وغيره، وتكفير من قال: إنه الله أو إن الله ثالث ثلاثة ومن اتخذه وأمه إلٰهين من دون الله، فبين غايته وغاية أمّه، فقال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ وهو رد على اليهود والنصارى، ثم قال: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ وهو يقتضي أن أكل الطعام منافٍ للإلهية. فمن يأكل الطعام لا يصلح أن يكون إلهاً، ولولا منافاته للإلهية لم يُذكر دليلاً على نفيها، فإن الدليل يستلزم المدلول عليه، فعلم أن أكل الطعام يستلزم نفي الإلهية، وقد ذكروا في ذلك وجهين: أشهرهما: أنّ من يأكل ويشرب يعيش بالغذاء ومن يقيمه الأكل والشرب كان مفتقراً إلى غيره فلا يصلح أن يكون إلهاً وهذا هو الذي ذكره أكثر المفسرين.

وقال طائفة منهم ابن قتيبة: إنه نبه على عاقبته وهو الحدث، إذ لا بد لآكل الطعام من الحدث، قال: وقوله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ﴾ من ألطف ما يكون[1] من الكناية.

وهذا الوجه الصحيح في حقّ المسيح وأمثاله من البشر في الدنيا، فإنّ أكلهم الطعام يستلزم الحدث، وخروج الحدث من أبين الأشياء دلالة على انتفاء إلهية من يبول ويغوط، وذلك أعظم من كونه يلد، والدليل يجب طرده ولا يجب عكسه، فلا يلزم أن يكون كل من يتغوط[2] أو من لا يأكل ويشرب إلهاً، كما أنه [لو] استدل على انتفاء

(١) أما القول الأول فقد عزاه ابن الجوزي للزجاج في زاد المسير، والقول الثاني فهو لابن قتيبة يراجع زاد المسير (٢/ ٤٠٤).

(٢) لعل الصواب: زيادة «لا».

الإلهية بأنه لا يتكلم أو لا يسمع أو لا يبصر، كان دليلاً صحيحاً، ولم يلزم أن يكون كل من يتكلم ويسمع ويبصر إلهاً، بل انتفاء صفات الكمال يناقض الإلهية وإن كان ثبوت جنسها لا يستلزم إلهية، كما أنّه إذا قيل إن الإله يجب أن يكون موجوداً قائماً بنفسه حيّاً عليماً قديراً، فانتفاء هذه الأمور تستلزم انتفاء الإلهية ولا يستلزم أن يكون كل موجود حي عليم قدير إلهاً.

وأما إن أريد بهذا الوجه الذي ذكره ابن قتيبة وغيره من لزوم الحدث، طرد الدليل فيحتاجون أن يفسروا الحدث بجنس الخارج من الآكل الشارب، فإن أهل الجنة يأكلون ويشربون ولا يبولون ولا يتغوطون كما ثبت ذلك في الأحاديث الصحيحة «لهم رشح كرشح المسك»[1]، وهذا من جنس العرق الذي يخرج من المسامّ وهو أيضاً ينافي الصمدية، فإن الصمد هو الذي لا يدخل فيه شيء ولا يخرج منه شيء، فخروج الخارج ولو كان كرشح المسك ينافي الصمدية التي هي من لوازم الباري فيكون لزوم الحدث للآكل دالاً على نفي إلهيته من هذه الجهة أيضاً، والصمدية هي المنافية للأكل والشرب وسائر ما يدخل ويخرج كما قد بسط في تفسير السورة.

الوجه الثاني: إن هذه الآية لم تُسَقْ لبيان تنزهه عن الأكل فإن ذلك مبين في ما يناسب ذلك من السور التي فيها تنزيهه عن النقائص ومن الآيات الدالة على أنّ هذه النقائص مستلزمة لكون صاحبها مخلوقاً لا إلهاً ونحو ذلك. وإنما سيقت لبيان حاجة الخلق إليه وإحسانه إليهم وبيان غناه عنهم وامتناع إحسانهم إليه فإنه يطعمهم وهم لا يطعمونه وهذا الوصف دال على هذا المقصود، كما إذا قيل: يعلمهم ولا يعلمونه ويعطيهم ولا يعطونه، وهو من معاني الصمد: أن كلّ ما سواه محتاج إليه وهو مستغن عن كل ما سواه، ثم كونه في نفسه لا يأكل ولا يشرب مدحٌ له وتنزيه من جهة أخرى فإن نفس كونه يُطعم ولا يطعم وصف اختص به. فالحيوان إنسهم وجنهم وبهائمهم يأكلون، فإذا قدر أنهم أطعموا فهم يطعمون والملائكة وإن كانوا لا يأكلون ولا يشربون فهم لا يطعمون الخلق فليس من يُطعِم ولا يُطعَم إلا الله، وإذا قُدّر قادر يطعم غيره ويحسن إليه ويرزقه وأولئك لا يطعمونه ولا يرزقونه ولا يحسنون إليه، كان هو المنعم عليهم واستحق أن يشكروه، وإن هو يأكل ويشرب من ملكه، لكن ليس هو محتاجاً إليهم ولا هم يحسنون إليه، فتبيّن أنّ هذا الوصف وصف مدح يختص به، ويبيّن ربوبيته

(١) حديث أهل الجنة رواه البخاري (٣٣٢٧)، ومسلم (٢٨٣٤).

وافتقار الخلق إليه وإحسانه إليهم، وإذا قيل وهو يُطعِم ولا يُطعَم، كان دلالته على هذا المعنى بطريق اللزوم، فإنه إذا كان لا يطعم في نفسه امتنع أن يطعمه أحد.

الوجه الثالث: أن مجرد كون الشيء يطعم غيره ولا يطعمه يوجب المدح فهذه صفة كمال حيث كانت، وأما كون الشيء في نفسه لا يطعم ولا يأكل ولا يشرب، فهذا إنما يكون مدحاً في حق الكامل المستغني عن الطعام والشراب لكماله، وأما من لا يطعم ولا يشرب لنقصه كالجامدات وكالحيوان المريض فهذا ليس ممدوحاً بذلك فلو قدر مريض موسر يطعم الناس وهو في نفسه لا يطعم لمرضه لم يمدح بأنه يطعم ولا يطعم والناس إذا لم يطعموه لكونه لا يطعم لمرضه ونقصه لم يكن ممدوحاً بأنهم لا يطعمونه، بخلاف ما إذا لم يطعم لغناه فإنه يمدح بأنه يطعم ولا يطعم، وإن كان هو في نفسه يأكل ويشرب من ماله، مع أن المريض لا بدّ أن يطعم بحال لنقصه كالجامدات، فالأرض يخرج منها صنوف الثمرات وهي لا تأكل لنقصها، فقد يقال: إنها تطعم ولا تطعم، أي لا تأكل لنقصها لكن هي محتاجة إلى السقي والشرب، وهذا حاجة منها إلى ما يقيمها ويغذيها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ فوصفه بالإثبات المطلق والنفي العام، وصفه بأنه يطعم وهذا مطلق يصلح أن يدخل فيه كل إطعام، كما إذا قيل: يخلق ويرزق ويعطي ويمنع، كما في الحديث الصحيح الإلهي: «يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم يا عبادي كلكم جائع إلّا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلّا من كسوته فاستكسوني أكسكم»[1]، وقال: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣]، وقال الخليل: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠﴾ [الشعراء]، وفي الحديث المأثور أنه يقال على الطعام: «الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة» وأنه من قال ذلك غفر له[2]، وفي الحديث الآخر: «الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم، منَّ علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا ومن كل خير آوانا»[3]، وقد قال تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣

---

(١) مسلم (٢٥٧٧) ولشيخ الإسلام شرح لهذا الحديث مطبوع في المجموع وغيره.

(٢) أبو داود (٤٠٢٣)، والترمذي (٣٤٥٨)، وابن ماجه (٣٢٨٥) وأحمد (٣/ ٤٣٩) والحديث حسن.

(٣) النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٨٦) وابن حبان (٥٢٢٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٤٢) والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٤٦)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٤٧٩) وابن أبي الدنيا في «الشكر» (١٧)، والحديث صحيح. وفي مصادر التخريج: وكل بلاء حسن أبلانا.

﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۢ ﴿٤﴾﴾ [قريش]، وبالجملة فضرورة الخلق إلى الرزق دائماً أمرٌ باهرٌ علماً وذوقاً ووجداً، فكونه يطعم من أطعم، بيان نعمه وكرمه وإحسانه، وقوله: (ولا يطعم) نفي عام فإن الفعل يكن في سياق النفي، فلا يطعمه أحد بوجه من الوجوه، فلا يكون أحد محسناً إليه ولا مكافئاً له على هذه النعمة كما رواه البخاري عن أبي أمامة أن النبي ﷺ كان يقول إذا رفعت مائدته: «الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفي ولا مودع ولا مستغن عنه ربنا»[1].

وأما إذا قيل يطعم وهو لا يأكل، لم يكن المنفي عنه من جنس المثبت له، بل ذكر تنزهه عن الأكل، فلا يبين المقصود من أنه يحسن إليهم الإحسان الذي يضطرون إليه، مع أن أحداً من الخلق لا يحسن إليه، فإن دلالة القراءة المشهورة على نفي إحسان الخلق إليه مع إحسانه إليهم أبين من دلالة كونه لا يأكل، فإن تلك تدل على المدح مطلقاً مع قطع النظر عن كونه هو يأكل أو لا يأكل، حتى لو قدّر على سبيل الفرض أنه يأكل لم يكن محتاجاً إليهم، ولا كانوا هم الذي يطعمونه، كما قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات]، وقد نبهنا على هذا وأنّه إذا كان مخلوق يحسن إلى غيره ويطعمه وهو لا يحتاج إليه في أمرٍ لا إطعام ولا غيره، كان محسناً إليه إحساناً محضاً، وإن كان محتاجاً إلى غير هذا الشخص، فكيف بمن هو سبحانه لا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه؟ ثم إنه من كمال إحسانه إلى عباده بيَّن أن من لم يطعم أولياءه ولم يعدهم فهو كمن لم يطعمه ولم يعده، كما في الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: عبدي مرضت فلم تعدني فيقول: ربِّ كيف أعودك وأنت رب العالمين فيقول: تطعمني فيقول: ربِّ كيف أطعمك وأنت رب العالمين، فيقول: أما علمت أن عبدي فلاناً جاع فلو أطعمته لوجدت ذلك عندي»[2]، فقال: (لوجدت ذلك عندي)، ولم يقل: (لوجدتني قد أكلته)، وقال: (لوجدتني عنده)، ولم يقل: (لوجدتني إياه).

الوجه الرابع: أن يُقال قوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ يتناول إطعام الأجساد ما تأكل وتشرب، وإطعام القلوب والأرواح ما تغتذي به وتتقوَّت به من العلم والإيمان والمعرفة والذكر وأنواع ذلك، مما هو قوت للقلوب فإنه هو الذي يقيت القلوب بهذه الأغذية،

(١) البخاري (٥٤٩).
(٢) مسلم (٢٥٦٩).

وهو في نفسه عالم لم يعلمه أحد، هادٍ لم يهده أحدٌ، متصف بجميع صفات الكمال قيوم لا يزول، ولا يعطيه غيره شيئاً من ذلك، فإذا قال: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ تناول القسمين، وإذا قيل (لا يَطْعمَ)، لم يكن المراد إلّا الأكل والشرب لم يكن المراد ذكره وعلمه وهدايته وحينئذٍ فيكون قوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ﴾ لا يتناول إلّا مأكول الجسد ومشروبه ومعلوم أن ذاك أشرف القسمين؛ فالقراءة التي تتناول القسمين أكمل من القراءة التي لا تتناول إلا أحدهما، بيان ذلك: ما في الصحيح من قول النبي ﷺ لما نهاهم عن الوصال، قالوا: «إنك تواصل، قال: إني لست كأحدكم إني أبيت ـ وروي أني أظلُّ ـ عند ربي يطعمني ويسقيني»[١] وأظهر القولين عند العلماء أنّ مراده ما يطعمه ويسقيه في باطنه من غير أن يكون أكلاً وشرباً في الفم لوجهين:

أحدهما: أنه لو كان يطعمه ويسقيه من فمه لم يكن مواصلاً، فإنّ المواصل هو من لا يأكل ولا يشرب، ولو قدر أنه أتي بطعام من الجنّة فأكله لكان آكلاً لا مواصلاً.

الثاني: إنّه روي (إني أظل عند ربي)، وهذا يتناول النهار والأكل في النهار حرام مفطر، ولو كان من طعام الجنة فتبين أنه سمّى ما يرزقه ويقيت به قلبه ويغذيه إطعاماً وإسقاءً.

وقد وصف النبي ﷺ بالطعم والذوق والوجد والحلاوة ما في القلوب من الإيمان، فقال في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن العباس عن النبي ﷺ قال: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً»[٢] فهذا ذائق طعم الإيمان وهو ذوق بباطن قلبه، يظهر أثره إلى سائر بدنه، ليس هو ذوقاً لشيء يدخل من الفم، وإن كان ذوقاً لشيء يدخل من الأذن، ولهذا يقال: البهائم تسمن من أقواتها والآدمي يسمن من أذنه، وفي الصحيحين عنه ﷺ إنه قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلّا لله، ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»[٣]، فأخبر أن من كانت فيه هذه الثلاث وجد حلاوة الإيمان، والحلاوة ضد المرارة، وكلاهما من أنواع المطعوم، فبين أن الإنسان يجد بقلبه حلاوة الإيمان ويذوق

---

(١) البخاري (٧٢٩٩)، ومسلم (١١٠٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، أما رواية (أضل) فرواها البخاري (٧٢٤١) ومسلم (١١٠٤) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) مسلم (٣٤).

(٣) البخاري (١٦ ـ ٢١)، ومسلم (٤٣).

طعم الإيمان، والله سبحانه هو الذي يذيقه طعم الإيمان، وهو الذي يجعله واجداً لهذه الحلاوة، فالمؤمنون يذوقون هذا الطعم ويجدون هذا الوجد، وفي ذلك من اللذّة والسرور والبهجة ما هو أعظم من لذة أكل البدن وشربه.

والربّ تعالى له الكمال الذي لا يقدر العباد قدره في أنواع علمه وحكمته ومحبته وفرحه وبهجته وغير ذلك مما أخبرت به النصوص النبوية ودلت عليه الدلائل الإلهية؛ كما هو مبسوط في غير هذا الموضع، وهو في ذلك كله غني عن كل ما سواه، فهو الذي يجعل في قلوب العباد من أنواع الأغذية والأقوات والمسار والفرح والبهجة ما لا يجعله غيره، وهو إذا فرح بتوبة التائب فهو الذي جعله تائباً حتى فرح بتوبته لم يحتج في ذلك إلى أحد سواه، والتعبير بلفظ القوت والطعام والشراب ونحو ذلك مما يقيت القلوب ويغذيها كثير جداً كما قال بعضهم: أطعمهم طعام المعرفة وسقاهم شراب المحبة، وقال آخر:

لها أحاديث من ذكراك يشغلها ... عن الشراب ويغنيها عن الزاد

وكثيراً ما توصف القلوب بالعطش والجوع، وتوصف بالري والشبع. وفي الصحيحين أن النبي ﷺ قال: «رأيت كأني أُتيت بقدح فشربت حتى إني لأرى الري يخرج من أظفاري ثم ناولت فضلي عمر»، قالوا: فما أوّلته يا رسول الله؟ قال: «العلم»[1]، فجعل العلم بمنزلة الشراب الذي يشرب)[2].

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ فيها وجهان:

قيل: هو جواب السائل، وقوله: ﴿شَهِيدُۢ﴾ خبر مبتدأ: أي هو شهيد.

وقيل: هو مبتدأ، وقوله: ﴿شَهِيدُۢ﴾ خبره؛ فأغنى ذلك عن جواب الاستفهام. و«الأول» على قراءة من يقف على قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ و«الثاني» على قراءة من لا يقف، وكلاهما صحيح: لكن الثاني أحسن وهو أتم.

وكل أحد يعلم أن الله أكبر شهادة، فلما قال: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ علم أن الله

---

(١) البخاري (٨٢)، ومسلم (٢٣٩١). (٢) جامع المسائل (١/ ١١١ ـ ١٢٤).

أكبر شهادة من كل شيء، فقيل له: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ ولما قال: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ كان في هذا ما يغني عن قوله: إن الله أكبر شهادة. وذلك أن كون الله أكبر شهادة هو معلوم، ولا يثبت بمجرد قوله: ﴿أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ بخلاف كونه شهيداً بينه وبينهم؛ فإن هذا مما يعلم بالنص والاستدلال. فينظر هل شهد الله بصدقه وكذّبهم في تكذيبه؟ أم شهد بكذبه وصدّقهم في تكذيبه؟ وإذا نظر في ذلك علم أن الله شهد بصدقه وكذبهم بالنوعين من الآيات: بكلامه الذي أنزله، وبما بين أنه رسول صادق.

ولهذا أعقبه بقوله: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ فإن هذا القرآن فيه الإنذار، وهو آية شهد بها أنه صادق، وبالآيات التي يظهرها في الآفاق وفي الأنفس. حتى يتبين لهم أن القرآن حق.

وقوله في هذه الآية: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدُۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، وكذلك قوله: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الإسراء: ٩٦]، وكذلك قوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأحقاف: ٨]. فذكر سبحانه أنه شهيد بينه وبينهم، ولم يقل: شاهد علينا، ولا شاهد لي؛ لأنه ضمن الشهادة الحكم. فهو شهيد يحكم بشهادته بيني وبينكم، والحكم قدر زائد على مجرد الشهادة؛ فإن الشاهد قد يؤدي الشهادة. وأما الحاكم فإنه يحكم بالحق للمحق على المبطل ويأخذ حقه منه، ويعامل المحق بما يستحقه. والمبطل بما يستحقه) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ...﴾ أي من بلغه القرآن ـ فكل من بلغه القرآن فقد أنذره محمد ﷺ.

ونبين هنا أن النذارة ليست مختصة بمن شافههم بالخطاب، بل ينذرهم به، وينذر من بلغهم القرآن) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ فالإنذار لمن بلغه القرآن بلفظه أو معناه، فإذا بلغته الرسالة بواسطة أو بغير واسطة قامت عليه الحجة وانقطع عذره) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ فكل من بلغه القرآن أنذره به الرسول، والإنذار به هو الإخبار بالعذاب لمن قامت عليه الحجة برسالته فلم يؤمن به) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (وإذا كان كذلك فمعلوم أن الحجة أنما تقوم بالقرآن على من

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٩٣ ـ ١٩٤).
(٢) الجواب الصحيح (١/ ٣٨٣).
(٣) شرح العمدة ـ الصلاة (٥١).
(٤) تفسير آيات أشكلت (١/ ٢٤٢).

بلغه كقوله: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾، فمن بلغه بعض القرآن دون بعض قامت عليه الحجة بما بلغه دون ما لم يبلغه، فإذا اشتبه معنى بعض الآيات، وتنازع الناس في تأويل الآية، وجب رد ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (قال: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾. فكل من بلغه القرآن من إنسي وجني فقد أنذره الرسول به. والإنذار هو الإعلام بالمخوف،. والمخوف ـ هو العذاب ـ ينزل بمن عصى أمره ونهيه) ا.هـ[٢].

﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾.

قال رحمه الله: (وقد روى البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ قال: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون] ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الصافات] ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ [النساء] ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فقد كتموا في هذه الآية وقال: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا﴾ إلى قوله ﴿دَحَىٰهَآ﴾ فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض ثم قال: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت] فذكر في هذه الآية خلق الأرض قبل السماء وقال: وكان الله غفوراً رحيماً عزيزاً حكيماً سميعاً بصيراً فكأنه كان ثم مضى فقال: لا أنساب في النفخة الأولى ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب عند ذلك ولا يتساءلون ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون وأما قوله ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾ فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم. قال المشركون: تعالوا نقل: لم نكن مشركين فختم على أفواههم فتنطق أيديهم فعند ذلك عرفوا أن الله لا يكتم حديثاً وعنده يود الذين كفروا الآية وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين ثم دحا الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلقت السموات في يومين وكان الله غفوراً رحيماً سمى نفسه ذلك وذلك قوله إني لم أزل كذلك فإن الله لم يرد شيئاً إلا أصاب فيه الذي أراد فلا يختلف عليك القرآن فإن كلا من عند الله هكذا رواه البخاري مختصراً[٣][٤].

---

(١) الجواب الصحيح (٢/ ٢٩٣).
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ١٤٩).
(٣) البخاري (٨/ ٥٥٥ ـ الفتح).
(٤) الفتاوى (التسعينية) (٥/ ٥٤ ـ ٥٥).

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۚ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

قال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾﴾ [الكهف].

وقوله: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ يتناول من لم يفهم منه تفسير اللفظ كما يفهم بمجرد العربية، ومن فهم ذلك لكن لم يعلم نفس المراد في الخارج، وهو: «الأعيان» و«الأفعال» و«الصفات» المقصودة بالأمر والخبر؛ بحيث يراها ولا يعلم أنها مدلول الخطاب: مثل من يعلم وصفاً مذموماً ويكون هو متصفاً به، أو بعضاً من جنسه ولا يعلم أنه داخل فيه) ا.هـ[1].

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

(فقال المخالفون لهم: النأي أعم من البعد، فإن النأي كلما قل بعده أو كثر؛ كأنه مثل المفارقة. والبعد إنما يستعمل فيما كثرت مسافة مفارقته، وقد قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ وهم مذمومون على مجانبته والتنحي عنه سواء كانوا قريبين أو بعيدين، وليس كلهم كان بعيداً عنه، لا سيما عند من يقول: نزلت في أبي طالب[2]، وقد قال النابغة:

والنؤي كالحوض بالمظلومة الجلد.

والمراد به ما يحفر حول الخيمة لينزل فيه الماء ولا يدخل الخيمة، أي صار كالحوض فهو مجانب للخيمة ليس بعيداً منها) ا.هـ[3].

﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

(وقد ذكر الله علمه بما سيكون بعد أن يكون في بضعة عشر موضعاً في القرآن، مع إخباره في مواضع أكثر من ذلك أنه يعلم ما يكون قبل أن يكون. وقد أخبر في القرآن من المستقبلات التي لم تكن بعد بما شاء الله. بل أخبر بذلك نبيه وغير نبيه، ولا

---

(١) مجموع الفتاوى (١٦/ ٩).
(٢) ذكر هذا في الطبري كما في (١٣١٧٠ ـ ١٣١٧٨) وذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٢١).
(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ١٧٨).

يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء. بل هو سبحانه يعلم ما كان، وما يكون، وما لو كان كيف كان يكون، كقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ بل وقد يعلم بعض عباده بما شاء أن يعلمه من هذا وهذا، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء) ا.هـ[1].

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

(إنه قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ فنفى عنهم التكذيب وأثبت الجحود ومعلوم أن التكذيب باللسان لم يكن منتفياً عنهم فعلم أنه نفى عنهم تكذيب القلب ولو كان المكذب الجاحد علمه يقوم بقلبه خبر نفساني لكانوا مكذبين بقلوبهم فلما نفى عنهم تكذيب القلوب علم أن الجحود الذي هو ضرب من الكذب والتكذيب بالحق المعلوم ليس هو كذباً في النفس ولا تكذيباً فيها وذلك يوجب أن العالم بالشيء لا يكذب به ولا يخبر في نفسه بخلاف علمه) ا.هـ[2].

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

(وأما البهائم فجميعها يحشرها الله سبحانه، كما دل عليه الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾﴾ [التكوير] وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الشورى] وحرف ﴿إِذَا﴾ إنما يكون لما يأتي لا محالة) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ لأن الكتاب هنا في أشهر القولين - هو اللوح المحفوظ، كما يدل عليه السياق في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾) ا.هـ[4].

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾.

(وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ وذكر سبحانه آية النور وآية الظلمة فقال: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى

---

(١) الرد على المنطقيين (٤٦٥ - ٤٦٦).
(٢) الفتاوى - التسعينية (٥/ ١٦٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٤٨).
(٤) درء تعارض العقل (٧/ ٣٩).

زُجَاجَةٌ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] فهذا مثل نور الإيمان في قلوب المؤمنين ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور].

«فالأول» مثل الاعتقادات الفاسدة والأعمال التابعة لها يحسبها صاحبها شيئاً ينفعه فإذا جاءها لم يجدها شيئاً ينفعه، فوفاه الله حسابه على تلك الأعمال.

و«الثاني»: مثل للجهل البسيط وعدم الإيمان والعلم، فإن صاحبها في ظلمات بعضها فوق بعض لا يبصر شيئاً؛ فإن البصر إنما هو بنور الإيمان والعلم) ا.هـ[1].

﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

(قال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾.

فذم الله سبحانه حزبين: حزباً لا يدعونه في الضراء، ولا يتوبون إليه. وحزباً يدعونه ويتضرعون إليه ويتوبون إليه. فإذا كشف الضر عنهم: أعرضوا عنه وأشركوا به ما اتخذوهم من الأنداد من دونه.

فهذا الحزب نوعان ـ كالمعطلة، والمشركة ـ حزب إذا نزل بهم الضر لم يدعوا الله ولم يتضرعوا إليه، ولم يتوبوا إليه، كما قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون] وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾ [التوبة] وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ [السجدة] وحزب

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٠٠ ـ ١٠١).

يتضرعون إليه في حال الضراء. ويتوبون إليه. فإذا كشفها عنهم: أعرضوا عنه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يونس] وقال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ [الإسراء: ٨٣] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء] وقال في المشركين ما تقدم ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النحل].

والممدوح: هو القسم الثالث. وهم الذين يدعونه، ويتوبون إليه، ويثبتون على عبادته، والتوبة إليه في حال السراء. فيعبدونه ويطيعونه في السراء والضراء. وهم أهل الصبر والشكر، كما ذكر ذلك عن أنبيائه عليهم السلام) ا.هـ[1].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

قال رحمه الله: (ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ أي فهلا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا، فحقهم عند مجيء البأس التضرع) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [وقال تعالى] ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [المؤمنون] فهذا تعذيب لهم في الدنيا ليتضرعوا إليه وليتوبوا مما هم عليه، ثم ذكر بعد هذا قسوة القلوب، وما يحدث عليها من الذنوب المانعة لها من التضرع والاستكانة) ا.هـ[3].

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

(قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ﴾ ينذرون الذين أساؤا عقوبات أعمالهم، ويبشرون الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالنعيم المقيم) ا.هـ[4].

﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

(وقد أمر الرسول ﷺ أن يبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٧٠ ـ ٣٧٢).
(٢) مجموع الفتاوى (٨/ ١٦٣).
(٣) تفسير آيات أشكلت (٢/ ٤٨٤ ـ ٤٨٥).
(٤) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٠١).

عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ وكذلك قال نوح عليه السلام. فهذا أول أولي العزم، وأول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض. وهذا خاتم الرسل وخاتم أولي العزم كلاهما يتبرأ من ذلك. وهذا لأنهم يطالبون الرسول ﷺ تارة بعلم الغيب كقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الملك] و﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف: ١٨٧] وتارة بالتأثير، كقوله: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ - إلى قوله - قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟ [الإسراء: ٩٠ - ٩٣] وتارةً يعيبون عليه الحاجة البشرية، كقوله: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان].

فأمره أن يخبر أنه لا يعلم الغيب، ولا يملك خزائن الله، ولا هو ملك غني عن الأكل والمال، إن هو إلا متبع لما أوحي إليه، واتباع ما أوحي إليه هو الدين، وهو طاعة الله، وعبادته علماً وعملاً بالباطن والظاهر وإنما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله تعالى فيعلم منه ما علَّمه إياه، ويقدر منه على ما أقدره الله عليه، ويستغني عما أغناه الله عنه من الأمور المخالفة للعادة المطردة أو لعادة غالب الناس) ا.هـ[1].

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قال رحمه الله: (كما طلب المشركون[2] من النبي ﷺ إبعاد الضعفاء، كسعد بن أبي وقاص، وابن مسعود، وخباب بن الأرت؛ وعمار بن ياسر، وبلال ونحوهم، وكان ذلك بمكة قبل أن يكون في الصحابة أهل الصفة، فأنزل الله تبارك وتعالى؛ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾؟!) ا.هـ[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٣١٢ - ٣١٣).

(٢) مسند أحمد (٦/ ٣٦) وقد صحح إسناده الهيثمي في المجمع (٧/ ٢٠) وصححه أحمد شاكر في تعليقه على تفسير الطبري (١٣٢٥٥)، لكن مدار الرواية على أشعث بن سوار وهو ضعيف.

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ١٩٢).

وقال رحمه الله: (ولما طلب بعض الأغنياء من النبي ﷺ إبعاد الفقراء نهاه الله عن ذلك وأثنى عليهم بأنهم يريدون وجهه. فقال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ الآية) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (ومثل قولهم: «إن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨] نزل في أهل الصفة، ومثل حديث: «غلام المغيرة بن شعبة أحد الأبدال الأربعين»[٢] وكذلك حديث فيه ذكر الأبدال والأقطاب والأغواث وعدد الأولياء. وأمثال ذلك مما يعلم أهل العلم بالحديث أنه كذب».

وكذلك أمثال هذه الأحاديث قد تعلم من غير طريق أهل الحديث، مثل أن نعلم أن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الكهف: ٢٨] في سورة الأنعام وفي سورة الكهف، وهما سورتان مكيتان باتفاق الناس. والصفة إنما كانت بالمدينة) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وأيد هذا المعنى أن الله تعالى قال: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾. وقد فسر[٤] هذا الدعاء بصلاتي الفجر والعصر، ولما أخبر أنهم يريدون وجهه بهاتين الصلاتين، وأخبر في هذا الحديث أنهم ينظرون إليه فتحضيضهم على هاتين يناسب ذلك أن من أراد وجهه نظر إلى وجهه تبارك وتعالى) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (وهذهِ الآية عامّة في كل من أراد الله بعمله. ودعاؤهم بالغداة والعشي يتناول مَنْ صلىٰ صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر، وليست هذهِ الآية مختصة بأهل الصُّفَّة ولا نزلت فيهم، فإن هذه الآية نزلت بمكة) ا.هـ[٦].

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ١٢٥).
(٢) بين شيخ الإسلام أن هذا الحديث موضوع في عدة مواضع يراجع الأحاديث التي تكلم فيها شيخ الإسلام (مجلة الحكمة العدد السادس).
(٣) منهاج السنة (٦/ ٤٢٤).
(٤) فسره مجاهد وقتادة كما في ابن جرير (١١/ ٣٨٢ ـ ٣٨٤).
(٥) مجموع الفتاوى (٦/ ٤٢٤).
(٦) جامع المسائل (٢/ ٨٣).

وقال في رده على الرافضي ابن مطهر الحلي:

(بل لو كان الصديق قبل الإسلام من الأرذلين لم يقدح ذلك فيه، فقد كان سعد، وابن مسعود، وصهيب، وبلال، وغيرهم من المستضعفين، وطلب المشركون من النبي ﷺ طردهم، فنهاه الله عن ذلك، وأنزل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾) ا.هـ[1].

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

(ومن استقرأ أحوال العالم تبين له أن الله لم ينعم على أهل الأرض نعمة أعظم من إنعامه بإرساله ﷺ وأن الذين ردوا رسالته، هم من قال الله فيهم: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾ [إبراهيم].

ولهذا وصف بالشكر من قبل هذه النعمة فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾) ا.هـ[2].

وقال ابن القيم رحمه الله: (﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: هم الذين يعرفون قدر نعمة الإيمان ويحمدون الله عليها) ا.هـ[3].

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾.

(لا ريب أن الله جعل على نفسه حقاً لعباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] وكما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ وفي الصحيحين: أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل وهو رديفه: «يا معاذ أتدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: حقهم عليه أن لا يعذبهم»[4] فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق) ا.هـ[5].

---

(١) منهاج السنة (٨/ ٥٤٣ ـ ٥٤٤).
(٢) الجواب الصحيح (٥/ ٨٨).
(٣) مدارج السالكين (٢/ ٤٨١).
(٤) البخاري (٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠).
(٥) اقتضاء الصراط (٢/ ٧٧٥ ـ ٧٧٦).

وقال رحمه الله: (ونظيره: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فهما تأكيدان مقصودان لمعنيين مختلفين، ألا ترى تأكيد قوله: ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ بـ(إن) غير تأكيد ﴿مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ له بـ(أن)؟! وهذا ظاهر لا خفاء به، وهو كثير في القرآن وكلام العرب) ا.هـ[١].

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾﴾.

(وقد قرأ قوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بالرفع والنصب. أي ولتتبين[٢] أنت سبيلهم. فالإنسان يستبين الأشياء. وهم يقولون: قد بان[٣] الشيء، وبينه، وتبين الشيء وتبينته، واستبان الشيء واستبنته، كل هذا يستعمل لازماً ومتعدياً) ا.هـ[٤].

قال رحمه الله: (وقرئ: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بالرفع والنصب أي تستبين أنت سبيلهم، فالأشياء لتستبين الأشياء، وهم يقولون بين الشيء، وبينته وتبين وتبينته، واستبان... واستبنته، كل هذا يستعمل لازماً ومتعدياً، فقوله: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ [الحجرات: ٦] هنا متعد وقوله: ﴿بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [النساء: ١٩] فهنا لازم، فالبيان بمعنى تبيين الشيء وبمعنى بينت الشيء، أي أوضحته، وهذا هو الغالب، كقوله: «إن من البيان لسحراً»[٥]) ا.هـ[٦].

﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾.

(فالملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به السموات والأرض كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ [المؤمنون]، وكما قال: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]) ا.هـ[٧].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٧٧).
(٢) في مؤلفات الشيخ محمّد بن عبد الوهاب (تستبين).
(٣) في مؤلفات الشيخ (بين).
(٤) مجموع الفتاوى (٩/ ٦٤).
(٥) البخاري (٥١٤٦).
(٦) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٩/ ١٨٤).
(٧) مجموع الفتاوى (٤/ ١١٩).

﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

(﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ «أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: أعوذ بوجهك. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: هاتان أهون». قالوا: فهو يقدر الله عليهما وهو لا يشاء أن يفعلهما، بل قد أجار الله هذه الأمة على لسان نبيها أن لا يسلط عليهم عدواً من غيرهم فيجتاحهم، أو يهلكهم بسنة عامة[١]) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وروي عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ قال: إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد. وعن عبد الله قال: خمس قد مضين البطشة واللزام والدخان والقمر والروم) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وفي الحديث عن النبي ﷺ لما نزل قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ الآية: قال: إنها كائنة، ولم يأت تأويلها بعد) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (مع ما قد ثبت في الصحيحين عن جابر عن النبي ﷺ: «أنه لما نزل قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: هاتان أهون» يقتضي أن لبسنا شيعاً وإذاقة بعضنا بأس بعض هو من العذاب الذي يندفع بالاستغفار) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: أعوذ بوجهك. ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: هاتان أهون». فدل

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) مجموع الفتاوى (٣/ ٢٨٥) (٦/ ٢٣١) (٨/ ١٠، ٢٩٣، ٤٩٩) (١١/ ٤٨٩)، منهاج السنة (٢/ ٩٠) (٣/ ٢٧٠ ـ ٢٧١) (٦/ ٢٣١)، الجواب الصحيح (٦/ ٣٠٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٩٤).

(٤) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٧٠).

(٥) مجموع الفتاوى (١٥/ ٤٤).

على أنه لا بد أن يلبسهم شيعاً، ويذيق بعضهم بأس بعض، مع براءة الرسول في هذه الحال، وهم فيها في جاهلية.

ولهذا قال الزهري: وقعت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون. فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو فرج أصيب بتأويل القرآن فهو هدر، أنزلوهم منزلة الجاهلية. وقد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: ترك الناس العمل بهذه الآية تعني قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ [الحجرات: ٩] فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى، فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وكذلك في الصحيحين: «لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ قال النبي ﷺ: أعوذ بوجهك ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: أعوذ بوجهك ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ قال: هاتان أهون»، وهذا لأنه لا بد أن تقع الذنوب من هذه الأمة، ولا بد أن يختلفوا؛ فإن هذا من لوازم الطبع البشري، لا يمكن أن يكون بنو آدم إلا كذلك، ولهذا لم يكن ما وقع فيها من الاختلاف والقتال والذنوب دليلاً على نقصها؛ بل هي أفضل الأمم، وهذا الواقع بينهم من لوازم البشرية، وهو في غيرها أكثر وأعظم، وخير غيرها أقل والخير فيها أكثر، والشر فيها أقل، فكل خير في غيرها فهو فيها أعظم، وكل شر فيها فهو في غيرها أعظم) ا.هـ[٢].

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ فنحن نعلم مستقر نبأ الله، وهو الحقيقة التي أخبر الله بها) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ قال بعضهم: موضع قرار وحقيقة ومنتهى ينتهي إليه، فيبين حقه من باطله وصدقه من كذبه.

وقال مقاتل: لكل خبر يخبر به الله وقت ومكان يقع فيه، من غير خلف ولا

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣١٠ ـ ٣١١).
(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٥٠ ـ ١٥١).
(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٢٧ ـ ٤٢٨).

تأخير[١]. وقال ابن السائب[٢]: لكل قول وفعل حقيقة ما كان منه في الدنيا فستعرفونه، وما كان منه في الآخرة فسوف يبدو لكم، وسوف تعلمون. وقال الحسن[٣]: لكل عمل جزاء؛ فمن عمل عملاً من الخير جوزي به في الجنة، ومن عمل عمل سوء جوزي به في النار، وسوف تعلمون. ومعنى قول الحسن: أن الأعمال قد وقع عليها الوعد والوعيد، فالوعد والوعيد عليها هو النبأ الذي له المستقر، فبين المعنى، ولم يرد أن نفس الجزاء هو نفس النبأ.

وعن السدي[٤] قال: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي ميعاد، وعدتكموه، فسيأتيكم حتى تعرفونه، وعن عطاء[٥]: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ تؤخر عقوبته ليعمل ذنبه، فإذا عمل ذنبه عاقبه، أي لا يعاقب بالوعيد، حتى يفعل الذنب الذي توعده عليه) ا.هـ[٦].

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

(ونسيان الخير يكون من الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾) ا.هـ[٧].

وقال رحمه الله: (فالهجرة تارة تكون من نوع التقوى، إذا كانت هجراً للسيئات. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ فبين سبحانه أن المتقين خلاف الظالمين، وأن المأمورين بهجران مجالس الخوض في آيات الله هم المتقون) ا.هـ[٨].

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى

---

(١) نقل ابن الجوزي في زاد المسير (٣/ ٦١) هذا الكلام ولم يعزه لأحد، أما كلام مقاتل فنقله وهو: منه في الدنيا يوم بدر وفي الآخرة جهنم.

(٢) أما قول ابن السائب فذكره البغوي (٢/ ٨٦).

(٣) لم أجد قول الحسن.

(٤) ابن جرير (١١/ ٤٣٥).

(٥) لم أجده.

(٦) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٧٠ ـ ٣٧١).

(٧) منهاج السنة (٥/ ١٨٣).

(٨) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢١١).

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾، فقد أمر سبحانه بالإعراض عن كلام الخائضين في آياته، ونهى عن القعود معهم، فكيف يكون استماع كل قول محموداً؟) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾ فنهى سبحانه عن القعود مع الظالمين؛ فكيف بمعاشرتهم؟ أم كيف بمخادنتهم؟) ا.هـ[2].

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

(وقال: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ﴾ و﴿تُبْسَلَ﴾ أي ترتهن وتحبس وتؤسر) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: وإحاطة الخطيئة به: إحداقها به بحيث لا يمكنه الخروج منها، وهذا يكون لمن أصر عليها حتى مات، وهذا هو البسل بما كسبت نفسه، كما قال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي تحتبس عما فيه نجاتها في الدنيا والآخرة؛ فإن المعاصي قيد لصاحبها، وحبس له، ومانع له عن الجولان في فضاء التوحيد، وحائل بينه وبين أن يجني من ثمار الأعمال الصالحة، فهو محبوس ها هنا، وهناك في الآخرة) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ﴾ - أي تحبس وتؤخذ وترتهن - ﴿نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾) ا.هـ[5].

---

(١) الاستقامة (١/ ٢١٧).
(٢) مجموع الفتاوى (٣٢/ ٢٥٤).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٩٩).
(٤) تفسير آيات أشكلت (١/ ٣٨٤).
(٥) الرد على المنطقيين (٥٢٦).

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾.

(وكانوا يتخذونهم شفعاء وشركاء كما أخبر القرآن بذلك، ولهذا قال الخليل: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦]. فذكر أنه (لا يُحِبّ الآفِلِينَ) لأنهم كانوا على عادتهم، على عادة المشركين، يعبد أحدهم ما يحبه ويهواه، ويتخذ إلهه هواه.

وقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ كلام مناسب ظاهر، فإن الآفل يغيب عن عابده فلا يبقى وقت أفوله من يعبده ويستعينه وينتفع به، ومن عبد ما يطلب منه المنفعة ودفع المضرة فلا بد أن يكون ذلك في جميع الأوقات، فإذا أفل ظهر بالحس حينئذ أنه لا يكون سبباً في نفع ولا ضر، فضلاً عن أن يكون مستقلاً.

ولهذا قال إبراهيم في مناظرته لهم: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢﴾، وهذه محاجة قوم كانوا يخوفونه بآلهتهم كما هي عادة المشركين، يخوفون من يكفر بطواغيتهم، أي مضرة ذلك فقال الخليل: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ﴾ فعدلتموه بالله تعبدونه كما يعبد الله ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فإن الله لم ينزل كتاباً من السماء ولم يرسل رسولاً بعبادة شيء سواه؟ كما قال الله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ٤٥﴾ [الزخرف] ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (ومما يبين ذلك أن العبادة هي المحبة، وأن الشرك فيها أصل الشرك، كما ذكره الله في قصة إمام الحنفاء إبراهيم الخليل، حيث قال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦﴾، وقال في القمر: ﴿لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾، فلما أفلت الشمس قال: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩﴾، ولهذا تبرأ إبراهيم من المشركين وممن أشركوا بالله، قال: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا

(١) بغية المرتاد (٣٧٤).

كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء]، وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (ودعواهم أن هذه طريقة إبراهيم الخليل في قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ كذب ظاهر على إبراهيم؛ فإن الأفول هو التغيب والاحتجاب باتفاق أهل اللغة والتفسير، وهو من الأمور الظاهرة في اللغة، وسواء أُريد بالأفول ذهاب ضوء القمر والكواكب بطلوع الشمس، أو أريد به سقوطه من جانب المغرب فإنه إذا طلعت الشمس يقال: إنها غابت الكواكب واحتجبت، وإن كانت موجودة في السماء، ولكن طمس ضوء الشمس نورها.

وهذا مما ينحل به الإشكال الوارد على الآية في طلوع الشمس بعد أفول القمر، وإبراهيم عليه السلام لم يقل: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ لما رأى الكوكب يتحرك؛ والقمر والشمس، بل إنما قال ذلك حين غاب واحتجب. فإن كان إبراهيم قصد بقوله الاحتجاب بالأفول على نفي كون الآفل رب العالمين ـ كما ادعوه ـ كانت قصة إبراهيم حجة عليهم؛ فإنه لم يجعل بزوغه وحركته في السماء إلى حين المغيب دليلاً على نفي ذلك؛ بل إنما جعل الدليل مغيبه. فإن كان ما ادعوه من مقصوده من الاستدلال صحيحاً فإنه حجة على نقيض مطلوبهم، وعلى بطلان كون الحركة دليل الحدوث.

لكن الحق أن إبراهيم لم يقصد هذا، ولا كان قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ أنه رب العالمين، ولا اعتقد أحد من بني آدم أن كوكباً من الكواكب خلق السموات والأرض، وكذلك الشمس والقمر، ولا كان المشركون قوم إبراهيم يعتقدون ذلك؛ بل كانوا مشركين بالله يعبدون الكواكب ويدعونها ويبنون لها الهياكل، ويعبدون فيها أصنامهم، وهو دين الكلدانيين والكشدانيين والصابئين المشركين؛ لا الصابئين الحنفاء، وهم الذين صنف صاحب «السر المكتوم في السحر ومخاطبة النجوم» كتابه على دينهم.

وهذا دين كان كثير من أهل الأرض عليه بالشام والجزيرة والعراق وغير ذلك، وكانوا قبل ظهور دين المسيح عليه السلام، وكان جامع دمشق وجامع حران وغيرهما موضع بعض هياكلهم: هذا هيكل المشتري، وهذا هيكل الزهرة.

---

(١) جامع الرسائل (٢/ ٢٧٣).

وكانوا يصلون إلى القطب الشمالي؛ وبدمشق محاريب قديمة إلى الشمال، والفلاسفة اليونانيون كانوا من جنس هؤلاء المشركين يعبدون الكواكب والأصنام، ويصنعون السحر، وكذلك أهل مصر وغيرهم. وجمهور المشركين كانوا مقرين برب العالمين، والمنكر له قليل مثل فرعون ونحوه.

وقوم إبراهيم كانوا مقرين بالصانع، ولهذا قال لهم إبراهيم الخليل: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء] فعادى كل ما يعبدونه إلا رب العالمين، وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [الممتحنة: ٤] وقال الخليل عليه السلام: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الصافات] وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ قال الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي استولى عليه فغطاه وستره، وليس أحد من الإنس يستتر دائماً عن أبصار الإنس، وإنما يقع هذا لبعض الإنس في بعض الأحوال: تارة على وجه الكرامة له، وتارة يكون من باب السحر وعمل الشياطين، ولبسط الكلام على الفرق بين هذا وبين هذا موضع آخر) ا.هـ[2].

﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

قال رحمه الله: (والمقصود هنا: أن المشركين لم يكونوا يثبتون مع الله إلهاً آخر مساوياً له في الصفات والأفعال، بل ولا كانوا يقولون: إن الكواكب والشمس والقمر

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٥٤٧ ـ ٥٥٠). (٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٦٥ ـ ٤٦٦).

خلقت العالم، ولا أن الأصنام تخلق شيئاً من العالم، ومن ظن أن قوم إبراهيم الخليل كانوا يعتقدون أن النجم أو الشمس أو القمر رب العالمين، أو أن الخليل عليه السلام لما قال: «هذا ربي» أراد به رب العالمين، فقد غلط غلطاً بيناً، بل قوم إبراهيم كانوا مقرين بالصانع، وكانوا يشركون بعبادته كأمثالهم من المشركين.

قال تعالى عن الخليل: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الشعراء].

فأخبر تعالى عن الخليل أنه عدو لكل ما يعبدونه إلا لرب العالمين، وأخبر أنهم يقولون يوم القيامة: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ كما قال تعالى في الموضع الآخر: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾﴾ [الزخرف]، وقال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

ولم يقل: من المعطلين، فإن قومه كانوا يشركون ولم يكونوا معطلين كفرعون اللعين، فلم يكونوا جاحدين للصانع، بل عدلوا به وجعلوا له أنداداً في العبادة والمحبة والدعاء، وهذا كما قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام]) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وأما قصة إبراهيم الخليل عليه السلام فقد علم باتفاق أهل اللغة

(١) الجواب الصحيح (١/ ٣٥٤ ـ ٣٥٦).

والمفسرين أن الأفول ليس هو الحركة، سواء كانت حركة مكانية، وهي الانتقال، أو حركة في الكم كالنمو، أو في الكيف كالتسود والتبيض، ولا هو التغير؛ فلا يُسمى في اللغة كل متحرك أو متغير آفلاً، ولا أنه أفل، لا يقال للمصلي أو الماشي إنه أفل، ولا يقال للتغير الذي هو استحالة، كالمرض واصفرار الشمس: إنه أفول، لا يقال للشمس إذا اصفرت: إنها أفلت، وإنما يقال «أفلت» إذا غابت واحتجبت، وهذا من المتواتر المعلوم بالاضطرار من لغة العرب؛ أن آفلاً بمعنى غائب، وقد أفلت الشمس تأفل وتأفل أفولاً: أي غابت.

ومما يبين هذا أن الله ذكر عن الخليل أنه لما: ﴿رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾.

ومعلوم أنه لما بزغ القمر والشمس كان في بزوغه متحركاً، وهو الذي يسمونه تغيراً، فلو كان قد استدل بالحركة المسماة تغيراً لكان قد قال ذلك من حين رآه بازغاً. وليس مراد الخليل بقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ رب العالمين، ولا أن هذا هو القديم الأزلي الواجب الوجود، الذي كل ما سواه محدث ممكن مخلوق له، ولا كان قومه يعتقدون هذا حتى يدلهم على فساده، ولا اعتقد هذا أحد يعرف قوله، بل قومه كانوا مشركين يعبدون الكواكب والأصنام، ويقرون بالصانع.

ولهذا قال الخليل: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء] وقال: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف]، فذكر لهم ما كانوا يفعلونه من اتخاذ الكواكب والشمس والقمر رباً يعبدونه ويتقربون إليه، كما هو عادة عباد الكواكب ومن يطلب تسخير روحانية الكواكب، وهذا مذهب مشهور، ما زال عليه طوائف من المشركين إلى اليوم، وهو الذي صنف فيه الرازي «السر المكتوم» وغيره من المصنفات.

فإن قال المنازعون: بل الخليل إنما أراد أن هذا رب العالمين.

قيل: فيكون إقرار الخليل حجة على فساد قولكم؛ لأنه حينئذ يكون مقراً بأن رب العالمين قد يكون متحيزاً منتقلاً من مكان إلى مكان، متغيراً، وأنه لم يجعل هذه

الحوادث تنافي وجوده، وإنما جعل المنافي لذلك أفوله، وهو مغيبه، فتبين أن قصة الخليل إلى أن تكون حجة عليهم أقرب من أن تكون حجة لهم، ولا حجة لهم فيها بوجه من الوجوه.

وأفسد من ذلك قول من جعل الأفول بمعنى الإمكان، وجعل كل ما سوى الله آفلاً، بمعنى كونه قديماً أزلياً، حتى جعل السموات والأرض والجبال والشمس والقمر والكواكب لم تزل ولا تزال آفلة، وأن أفولها وصف لازم لها، إذ هو كونها ممكنة، والإمكان لازم لها، فهذا مع كونه افتراء على اللغة والقرآن افتراءً ظاهراً يعرفه كل أحد، كما افترى غير ذلك من تسمية القديم الأزلي محدثاً، وتسميته مصنوعاً ـ فقصة الخليل حجة عليه، فإنه لما رأى القمر بازغاً قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ ولما رأى الشمس بازغة قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ﴾ فتبين أنه أفل بعد أن لم يكن آفلاً، فكون الشمس والقمر والكوكب وكل ما سوى الله ممكناً هو وصف لازم له، لا يحدث له بعد أن لم يكن.

وهم يقولون: إمكانه له من ذاته، ووجوده من غيره، بناء على تفريقهم في الخارج بين وجود الشيء وذاته، فالإمكان عندهم أولى بذاته من الوجود. ولو قال: فلما وجدت أو خلقت أو أبدعت قال: لا أحب الموجودين والمخلوقين، كان هذا قبيحاً متناقضاً، إذ لم يزل كذلك. فكيف إذا قال: فلما صارت ممكنة؛ وهي لم تزل ممكنة.

وأيضاً فهي من حين بزغت وإلى أن أفلت ممكنة بذاتها تقبل الوجود والعدم، مع كونها عندهم قديمة أزلية يمتنع عدمها، وحينئذ يكون كونها متحركة ليس بدليل عند إبراهيم على كونها ممكنة تقبل الوجود والعدم.

وأما قول القائل: «كل متحرك محدث، أو كل متحرك ممكن يقبل الوجود والعدم» فهذه المقدمة ليست ضرورية فطرية باتفاق العقلاء، بل من يدعي صحة ذلك يقول: إنها لا تعلم إلا بالنظر الخفي، ومن ينازع في ذلك يقول: إنها باطلة عقلاً وسمعاً، ويمثل من مثل هذا في أوائل العلوم الكلية لقصوره وعجزه، وهو نفسه يقدح فيها في عامة كتبه.

وأما قوله: «كل متغير محدث أو ممكن» فإن أراد بالتغير ما يعرف من ذلك في اللغة، مثل استحالة الصحيح إلى المرض، والعادل إلى الظلم، والصديق إلى العداوة، فإنه يحتاج في إثبات هذه الكلية إلى دليل. وإن أراد بالتغير معنى الحركة، أو قيام

الحوادث مطلقاً، حتى تسمى الكواكب حين بزوغها متغيرة، ويسمى كل متكلم ومتحرك متغيراً، فهذا مما يتعذر عليه إقامة الدليل فيه على دعواه.

وأما استدلالهم بما في القرآن من تسمية الله أحداً وواحداً على نفي الصفات، الذي بنوه على نفي التجسيم.

فيقال لهم: ليس في كلام العرب، بل ولا عامة أهل اللغات، أن الذات الموصوفة بالصفات لا تسمى واحداً ولا تسمى أحداً في النفي والإثبات، بل المنقول بالتواتر عن العرب تسمية الموصوف بالصفات واحداً وأحداً، حيث أطلقوا ذلك، ووحيداً) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقد ظن طائفة من الجهمية والمعتزلة وغيرهم أن مراده بقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ أن هذا خالق العالم، وأنه استدل بالأفول ـ وهو الحركة والانتقال ـ على عدم ربوبيته، وزعموا أن هذه الحجة هي الدالة على حدوث الأجسام وحدوث العالم.

وهذا غلط من وجوه:

أحدها: أن هذا القول لم يقله أحد من العقلاء، لا قوم إبراهيم ولا غيرهم، ولا توهم أحدهم أن كوكباً أو القمر أو الشمس خلق هذا العالم، وإنما كان قوم إبراهيم مشركين يعبدون هذه الكواكب زاعمين أن في ذلك جلب منفعة أو دفع مضرة، على طريقة الكلدانيين والكشدانيين وغيرهم من المشركين أهل الهند وغيرهم، وعلى طريقة هؤلاء صنف الكتاب الذي صنفه أبو عبد الله بن الخطيب الرازي في السحر والطلسمات ودعوة الكواكب، وهذا دين المشركين من الهند والخطا[2] والنبط والكلدانيين والكشدانيين وغير هؤلاء. ولهذا قال الخليل: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ وقال: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٧٥ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾ [الشعراء] وأمثال ذلك.

وأيضاً، فالأفول في لغة العرب هو المغيب والاحتجاب، ليس هو الحركة والانتقال.

وأيضاً، فلو كان احتجاجه بالحركة والانتقال لم ينتظر إلى أن يغيب، بل كان نفس الحركة التي يشاهدها من حين تطلع إلى أن تغيب هي الأفول.

---

(١) درء تعارض العقل (١/ ١٠٩ ـ ١١٣).

(٢) حرر القول فيه محمّد رشاد سالم أن معناه إما الصين أو شمال الصين.

وأيضاً، فحركتها بعد المغيب والاحتجاب غير مشهودة ولا معلومة. وأيضاً، فلو كان قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ أي هذا رب العالمين، لكانت قصة إبراهيم عليه السلام حجة عليهم، لأنه حينئذ لم تكن الحركة عنده مانعة من كونه رب العالمين، وإنما المانع هو الأفول.

ولما حرف هؤلاء لفظ «الأفول» سلك ابن سينا هذا المسلك في «إشارته» فجعل الأفول هو الإمكان، وجعل كل ممكن آفلاً، وأن الأفول هوى في حظيرة الإمكان وهذا يستلزم أن يكون ما سوى الله آفلاً.

ومعلوم أن هذا من أعظم الافتراء على اللغة والقرآن ومن أعظم القرمطة، ولو كان كل ممكن آفلاً لم يصح قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ فإن قوله: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ﴾ يقتضي حدوث الأفول له، وعلى قول هؤلاء المفترين على اللغة والقرآن: «الأفول» لازم له لم يزل ولا يزال آفلاً، ولو كان مراد إبراهيم بالأفول الإمكان، والإمكان حاصل في الشمس والقمر والكوكب في كل وقت، لم يكن به حاجة إلى أن ينتظر أفولها.

وأيضاً، فجعل القديم الأزلي الواجب بغيره أزلاً وأبداً ممكناً قول انفرد به ابن سينا ومن تابعه، وهو قول مخالف لجمهور العقلاء من سلفهم وخلفهم) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله في أحد وجوه ردّه على المتكلمين الذين تشبّثوا بقصة إبراهيم في قولهم بحدوث كلٍّ متغيّر: (أن يقال قصة إبراهيم الخليل التي قصها الله تعالى في كتابه، مع أنها من أعظم سبل الاعتبار لتحقيق التوحيد، فقد ضل بها فريقان من الناس، وأضل[2] ضلالتهم أنهم اعتقدوا أن إبراهيم لما قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ في الثلاثة مخبراً، أو مستفهماً، أو مقدراً، أراد أن هذا هو الذي خلق السموات والأرض وأنه رب العالمين، ثم إنهم لما ظنوا أنه أراد هذا سلك هؤلاء سبيلاً وهؤلاء سبيلاً، ولو تدبروا القصة لعلموا أنها تدل على نقيض قولهم.

فالفريق الأول: طوائف من أئمة أهل الكلام، من الجهمية والمعتزلة، ومن اتبعهم من غيرهم حتى مثل ابن عقيل، وأبي حامد وغيرهم، قالوا: إن هذا الذي سلكه إبراهيم هو الدليل الذي سلكه هؤلاء في حدوث الأجسام، حيث استدلوا على ذلك بما قام بها من الأعراض الحادثة كالحركة، وأثبتوا حدوث الأعراض أو بعضها، ولزومها للجسم أو بعضها، ثم قالوا: وما لا ينفك عن الحوادث! فهو حادث، ثم منهم من أخذ ذلك

(١) منهاج السنة (٢/ ١٩٣ ـ ١٩٧).
(٢) كذا في الأصل، ولعل صحتها: وأصل.

مسلماً، ومنهم من تفطن للسؤال الوارد هنا، وهو الفرق بين ما لا ينفك عن عين المحدث أو نوعه، فإن المحدث المعين إذا قدر أنه لازم لغيره فلا ريب أنه حادث، هذا معلوم بالضرورة والاتفاق، وأما ما يستلزم نوع المحدث فإنما يعلم حدوثه إذا قدر امتناع حوادث لا أول لها، فخاضوا في تقرير هذه المقدمة بما ذكروه.

والمقصود هنا: أن من هؤلاء من جعل هذا هو دليل إبراهيم الخليل على إثبات الصانع، وهو أنه استدل بالأفول، الذي هو الحركة والانتقال على حدوث ما قام به ذلك، ولو تدبروا لعلموا أن قصة إبراهيم هي على نقيض مطلوبهم من الأفول، أما أولاً: فإن إبراهيم إنما قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ والأفول هو المغيب والاختفاء بالعلم القائم المتواتر الضروري في النفس واللغة، ولم ينقل أحد أن الأفول مجرد الحركة.

وأما ثانياً: فإنه قد قال: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

ومعلوم أنه من حين البزوغ ظهرت فيه الحركة، فلو كانت هي الدليل على الحدوث لم يستمر على ما كان عليه إلى حين المغيب، بل هذا يدل على أن الحركة لم يستدل بها، أو لم تكن تدل عنده على نفس مطلوبه.

وأما ثالثاً: فإنما قال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ فنفى محبته فقط ولم يتعرض لما ذكروه.

وأما رابعاً: فمن المعلوم أن أحداً من العقلاء لم يكن يظن أن كوكباً من الكواكب دون غيره من الكواكب هو رب كل شيء حتى يكون رب سائر الكواكب والأفلاك والشمس والقمر، وقد بسطنا الكلام في ذلك في غير هذا الموضع) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (ولهذا قال الخليل في آخر أمره ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ فتبرأ عما كانوا يشركونه بالله، وذكر أنه وجه قصده وعبادته للذي فطر السموات والأرض، وهذه الحنيفية ملة إبراهيم التي بعث الله بها الرسل، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وليس في لفظه إحداث إقرار الصانع، بل كان الإقرار بالصانع ثابتاً عندهم، لهذا قال في الآية

(١) بغية المرتاد (٣٥٨ ـ ٣٦٠).

الأخـــرى: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء] ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (فهذا الخليل الذي جعله الله إمام الأئمة، الذين يهتدون بأمره؛ من الأنبياء والمرسلين بعده، وسائر المؤمنين قال: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾.

وعند الملاحدة الذي أشركوه: هو عين الحق ليس غيره، فكيف يتبرأ من الله الذي وجه وجهه إليه؟ وأحد الأمرين على أصلهم؛ إما أن يعبده في كل شيء من المظاهر بدون تقييد ولا اختصاص ـ وهو حال المكمل عندهم ـ فلا يتبرأ من شيء؛ وإما أن يعبده في بعض المظاهر، كفعل الناقصين عندهم.

وأما التبرؤ من بعض الموجودات فقد قال: إن قوم نوح لو تركوهم لتركوا من الحق بقدر ما تركوا من تلك الأوثان، والرسل قد تبرأت من الأوثان، فقد تركت الرسل من الحق شيئاً كثيراً، وتبرؤا من الله الذي دعو الخلق إليه، والمشركون ـ على زعمهم ـ أحسن حالاً من المرسلين، لأن المشركين عبدوه في بعض المظاهر، ولم يتبرؤا من سائرها، والرسل تبرؤا منه في عامة المظاهر.

ثم قول إبراهيم: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ باطل على أصلهم، فإنه لم يفطرها، إذ هي ليست غيره، فما أجدرهم بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

ثم قول الخليل: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾؟ الآية. وهذه حجة الله التي آتاها إبراهيم على قومه بقوله: كيف أخاف ما عبدتموه من دون الله؟ وهي المخلوقات المعبودة من دونه، وعندهم ليست معبودة من دونه، ومن لم يخفها فلم يخف الله، فالرسل لم يخافوا الله.

وقول الخليل: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف: ٣٣] لم يصح عندهم، فإنهم لم يشركوا بالله شيئاً، إذ ليس ثم غيره حتى يشركوه به، بل المعبود الذي عبدوه هو الله، وأكثر ما فعلوه: إنهم عبدوه في بعض المظاهر، وليس في هذا أنهم جعلوا غيره شريكاً له في العبادة.

---

(١) بغية المرتاد (٣٧٣).

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ وورد في الصحيحين[١] عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: «ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؟» فقد أخبر الله ورسوله أن الشرك ظلم عظيم، وأن الأمن هو لمن آمن بالله، ولم يخلط إيمانه بشرك، وعلى زعم هؤلاء الملاحدة: فإيمان الذين خلطوا إيمانهم بشرك: هو الإيمان الكامل التام، وهو إيمان المحقق العارف عندهم، لأن من آمن بالله في جميع مظاهره وعبده في كل موجود: هو أكمل ممن لم يؤمن به حيث لم يظهر، ولم يعبده إلا من حيث لا يشهد ولا يعرف، وعندهم لا يتصور أن يوجد إلا في المخلوق، فمن لم يعبده في شيء من المخلوقات أصلاً، فما عبده في الحقيقة أصلاً، وإذا أطلقوا أنه عبده فهو لفظ لا معنى له، أي إذا فسروه بالتخصيص فيكون بالتخصيص بمعنى أنه خصص بعض المظاهر بالعبادة، وهذا عندهم نقص لا من جهة ما أشركه وعبده، وإنما هو من جهة ما تركه، فليس عندهم في الشرك ظلم ولا نقص إلا من جهة قلته، وإلا فإذا كان الشرك عاماً كان أكمل وأفضل) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (قال الزجاج[٣] في قوله: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾ أي جعلت قصدي بعبادتي وتوحيدي لله رب العالمين، وكذلك قوله: ﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٩] فإن الوجوه التي هي المقاصد، والنيات التي هي عمل القلب، وهي أصل الدين: تارة تقام وتارة تزاغ، كما قال النبي ﷺ: «ما من قلب من قلوب العباد إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه» فإقامة الوجه ضد إزاغته وإمالته[٤] وهو الصراط المستقيم».

فإذا قوم قصده وسدده ولم ينحرف يميناً ولا شمالاً كان قصده لله رب العالمين، كما قال: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥] وكذلك قال الربيع بن أنس: «اجعلوا سجودكم خالصاً لله» فلا تسجدوا إلا لله.

---

(١) رواه البخاري (١/ ٨١)، ومسلم (٢/ ١٤٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٦١ ـ ٢٦٣) جامع المسائل (٣/ ٤٥) الحديث فقط.

(٣) زاد المسير (٣/ ٧٦).

(٤) حديث تقليب القلوب أصله في مسلم (٢٦٥٤) أما هذه الرواية فقد جاءت عند النسائي في الكبرى وابن ماجه والحاكم وأضاف الزبيدي ابن عساكر وابن النجار في تاريخهما.

وروي عن الضحاك وابن قتيبة: «إذا حضرت الصلاة وأنتم عند مسجد فصلوا فيه، ولا يقولن أحدكم: أصلي في مسجدي»[١] كأنه أراد صلوا لله عند كلّ مسجد، لا تخصوا مسجداً دون مسجد) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وتوجيه الوجه كقول الخليل؛ ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وكذلك كان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح في صلاته: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وكان يقول إذا أوى إلى فراشه: «اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك» رواه البراء بن عازب في الصحيح أيضاً[٣].

فالوجه يتناول المتوجه ـ بكسر الجيم ـ والمتوجه ـ بفتح الجيم ـ إليه، ويتناول التوجه نفسه. كما يقال: أي وجه تريد؟ أي أي جهة وناحية تقصد؟ وذلك أنهما متلازمان، فحيث توجه الإنسان توجه وجهه، ووجهه مستلزم لتوجهه، وهذا في باطنه وظاهره جميعاً. فهي أربعة أمور والباطن هو الأصل، والظاهر هو الكمال والشعار. فإذا توجه قلبه إلى شيء تبعه وجهه الظاهر، فإذا كان العبد قصده ومراده وتوجهه إلى الله، فهذا صلاح إرادته وقصده، فإذا كان مع ذلك محسناً، فقد اجتمع [له]. «أن يكون عمله صالحاً وأن يكون لله تعالى») ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (كقول الخليل عليه السلام: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ ثم قال: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ أي لا أخاف أن تفعلوا شيئاً، لكن إن شاء ربي شيئاً كان وإلا لم يكن، وإلا فهم لا يفعلون شيئاً) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ فإنهم خوفوا إبراهيم بمن عبدوه من دون الله فقال لهم: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ﴾ فإنه ليس للمؤمن أن يخاف إلا الله. فلا يستحق ملك مقرب ولا نبي مرسل أن يخشى ويتقي كما لا يستحق أن يصلي له ويصام، بل هذا كله لا يصلح إلا لله وحده لا إله إلا هو. ثم قال الخليل: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ وهذا

---

(١) في «زاد المسير» (٣/ ١٨٥) قاله ابن عباس والضحاك واختاره ابن قتيبة.
(٢) مجموع الفتاوى (٢/ ٤٣٢). (٣) متفق عليه.
(٤) الاستقامة (٢/ ٣٠٦ ـ ٣٠٨). (٥) الرد على الأخنائي (١٣٥).

استثناء منقطع أي لكن إن شاء ربي شيئاً كان، فأنا أخاف ربي ثم قال: وكيف أخاف ما أشركتم من المخلوقات وأنتم لا تخافون إشراككم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً يقول: فكيف لا تخافون إنكم عبدتم غير الله بغير سلطان من الله) ا.هـ[1].

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

(وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه لما أنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: «إنما هو الشرك، ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤] وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

وفي الصحيحين[3] عن ابن مسعود أنه قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: وأينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: «إنما هو الشرك أو لم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؟. وقال تعالى: ﴿فَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [النحل: ٥١] و﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١] ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (وقال تعالىٰ حكاية عن الخليل عليه السلام: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

كان المشركون يخوّفون المؤمنين بآلهتهم، ويقولون: إنكم إذا لم تتخذوها شركاء وشفعاء فإنها تضرّكم، فأنكر الخليل عليه السلام وقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا

---

(١) الاستغاثة (١٤٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٣٠٥) (١٠/ ٢٥٧) (٢٤/ ٣٢٨) (١٨/ ١٦١)، والجواب الصحيح (١/ ١٠٧)، وبغية المرتاد (٣٧٥).

(٣) البخاري (١/ ١٥)، ومسلم (١/ ٦٤).

(٤) مجموع الفتاوى (٣/ ١٠٨، ١٠٩).

تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾، أي كيف أخاف ما تدعون من دون الله؟ وهو لا يضرُّ ولا ينفع إلا بإذن الله، وأنتم لا تخافون الله حيث أشركتم به فجعلتم له أنداداً، فأعدلتموهم به، تدعون من دونه وتخافونهم وترجونهم، وهو لم ينزّل بذلك عليكم سلطاناً وهو الكتاب المنزّل من السماء ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب انبي ﷺ وقالوا: أيّنا لم يظلم نفسه؟ وقال النبي ﷺ: «إنما هو الشرك، ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] وهذا باب يطول وصفه، وإنما المقصود التنبيه عليه) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ، وقالوا يا رسول الله!، أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: إنما هو الشرك، ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾؟ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣] قال زيد بن أسلم وغيره: بالعلم، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن] ولم يقل وإن المشاهد لله، بل أهل المشاهد يدعون مع الله غيره) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ وقال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ وذكر حديث ابن مسعود المتفق عليه قال: لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ قال رسول الله ﷺ: ليس بذلك. ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ إنما هو الشرك.

حدثنا محمد بن يحيى حدثنا الحجاج بن المنهال عن حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب كان إذا دخل بيته نشر المصحف فقرأ فيه، فدخل ذات يوم فقرأ، فأتى على هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ إلى آخر الآية، فانتعل وأخذ رداءه ثم أتى إلى أبي بن كعب فقال: يا أبا

---

(١) جامع المسائل (٤/ ٣٧ ـ ٣٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/ ١٦٩).

المنذر أتيت قبل على هذه الآية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ وقد نرى أنا نظلم ونفعل. فقال: يا أمير المؤمنين إن هذا ليس بذلك، يقول الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣] إنما ذلك[١] الشرك)ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود أنه لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال النبي ﷺ: «إنما هو الشرك: ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾»[٣].

والذين شق ذلك عليهم ظنوا: أن الظلم المشروط هو ظلم العبد نفسه، وأنه لا يكون الأمن والاهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه؛ فشق ذلك عليهم، فبين النبي ﷺ لهم ما دلهم على أن الشرك ظلم في كتاب الله تعالى. وحينئذٍ فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم؛ ومن لم يلبس إيمانه به كان من أهل الأمن والاهتداء. كما كان من أهل الاصطفاء في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢] إلى قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [الرعد: ٢٣]. وهذا لا ينفي أن يؤاخذ أحدهم بظلم نفسه إذا لم يتب، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة]، وقال تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

وقد سأل أبو بكر النبي ﷺ عن ذلك فقال: يا رسول الله! وأينا لم يعمل سوءاً؟ فقال: «يا أبا بكر! ألست تنصب؟ ألست تحزن، ألست تصيبك اللأواء؟ فذلك ما تجزون به»[٤] فبين أن المؤمن الذي تاب دخل الجنة، قد يجزى بسيئاته في الدنيا بالمصائب التي تصيبه، كما في «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تفيئها الرياح، تقومها تارة وتميلها أخرى، ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة»[٥] وفي «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال: «ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب، ولا هم ولا حزن ولا غم ولا أذى، حتى الشوكة يشاكها، إلا كفر الله بها من خطاياه»[٦]، وفي حديث سعد بن

---

(١) ابن جرير (١٣٤٩٣).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨).
(٣) مرّ تخريجه.
(٤) مرّ تخريجه.
(٥) البخاري (٥٦٤٤)، ومسلم (٢٨٠٩).
(٦) مرّ تخريجه.

أبي وقاص، قلت: يا رسول الله؟ أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل؛ يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة، زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقة؛ خفف عنه ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة»[١] رواه أحمد والترمذي وغيرهما. وقال: «المرض حطة يحط الخطايا عن صاحبه، كما تحط الشجرة اليابسة ورقها»[٢] والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة؛ كان له الأمن التام، والاهتداء التام. ومن لم يسلم من ظلمه نفسه؛ كان له الأمن والاهتداء مطلقاً، بمعنى أنه لا بد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك في الآية الأخرى، وقد هداه إلى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه نفسه. وليس مراد النبي ﷺ بقوله: «إنما هو الشرك» إن من لم يشرك الشرك الأكبر، يكون له الأمن التام، والاهتداء التام، فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف، لم يحصل لهم الأمن التام ولا الاهتداء التام الذي يكونون به مهتدين إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من غير عذاب يحصل لهم؛ بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط، ومعهم أصل نعمة الله عليهم، ولا بد لهم من دخول الجنة، وقول النبي ﷺ: «إنما هو الشرك» إن أراد به الشرك الأكبر، فمقصوده أن من لم يكن من أهله، فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة وهو مهتد إلى ذلك. وإن كان مراده جنس الشرك؛ فيقال: ظلم العبد نفسه كبخله لحب المال ببعض الواجب؛ هو شرك أصغر، وحبه ما يبغضه الله حتى يكون يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر، ونحو ذلك. فهذا صاحبه قد فاته من الأمن والاهتداء بحسبه، ولهذا كان السلف يدخلون الذنوب في هذا الظلم بهذا الاعتبار ا.هـ[٣].

---

(١) الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، والبخاري في «الأدب المفرد»، وأحمد (١/ ١٧٤، ١٨٠، ١٨٥)، والحاكم (١/ ٤١) (٤/ ٣٠٧) والبغوي في شرح السنة (٥/ ٢٤٤)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ١٢)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣٦٨)، والطيالسي (٢٠٩١) والحديث صحيح.

(٢) مرّ تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى (٧/ ٧٨ ـ ٨٢).

وقال رحمه الله: (ولما نزل قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شق عليهم وقالوا: أينا لم يظلم نفسه حتى بين لهم، ولما نزل قوله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤] شق عليهم حتى بين لهم الحكمة في ذلك) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (ذكر الله عن إمامنا إبراهيم الخليل الله أنه قال لمناظريه من المشركين الظالمين: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾، وفي الصحيح من حديث عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ فسر الظلم بالشرك وقال: «ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]؛ فأنكر أن نخاف ما أشركوهم بالله من جميع المخلوقات العلويات والسفليات، وعدم خوفهم من إشراكهم بالله شريكاً لم ينزل الله به سلطاناً، وبين أن القسم الذي لم يشرك هو الآمن المهتدي.

وهذه آية عظيمة تنفع المؤمن الحنيف في مواضع؛ فإن الإشراك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل؛ دع جليله، وهو شرك في العبادة والتأله، وشرك في الطاعة والانقياد، وشرك في الإيمان والقبول) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (**قال الله تعالى:** ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ والظلم هنا هو الشرك كما هو في الصحيح من حديث ابن مسعود فتبين أن أهل الإخلاص أحق بالأمن من أهل الإشراك به) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (**قوله:** ﴿لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي هؤلاء الموحدون المخلصون؛ ولهذا قال الإمام أحمد لبعض الناس: لو صحت لم تخف أحداً) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (**ومثل هذا قوله تعالى في حكايته عن الخليل:** ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٣٩٥).
(٢) مجموع الفتاوى (١/ ٩٧).
(٣) الاستغاثة (١٤٣).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٦).

قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ فإن هؤلاء المشركين الشرك الأكبر والأصغر يخوفون المخلصين بشفعائهم فيقال لهم: نحن لا نخاف هؤلاء الشفعاء الذين لكم، فإنهم خلق من خلق الله لا يضرون إلا بعد مشيئة الله، فمن مسه بضر فلا كاشف له إلا هو، ومن أصابه برحمة فلا راد لفضله وكيف نخاف هؤلاء المخلوقين الذين جعلتموهم شفعاء وأنتم لا تخافون الله، وقد أحدثتم في دينه من الشرك ما لم ينزل به وحياً من السماء، فأي الفريقين أحق بالأمن؟ من كان لا يخاف إلا الله، ولم يبتدع في دينه شركاء، أم من ابتدع في دينه شركاً بغير إذنه؟ بل من آمن ولم يخلط إيمانه بشرك فهؤلاء من المهتدين) ا.هـ[1].

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾﴾.

(قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ قال زيد بن أسلم[2] وغيره: بالعلم، فالعلم بحسن المحاجة مما يرفع الله تعالى به الدرجات) ا.هـ[3].

وقال شيخ الإسلام:

ذكر الله أنه يرفع درجات من يشاء في قصة مناظرة إبراهيم عليه السلام وفي قصة احتيال يوسف، ولهذا قال السلف: بالعلم، فإن سياق الآيات يدل عليه، فقصة إبراهيم في العلم بالحجة، والمناظرة لدفع ضرر الخصم عن الدين، وقصة يوسف في العلم بالسياسة والتدبير لتحصل منفعة المطلوب، فالأول علم بما يدع المضار في الدين، والثاني علم بما يجلب المنافع، أو يقال: الأول هو العلم الذي يدفع المضرة عن الدين ويجلب منفعته، والثاني علم بما يدفع المضرة عن الدنيا ويجلب منفعتها أو يقال قصة إبراهيم في علم الأقوال النافعة ضد الحاجة إليها وقصة يوسف في علم الأفعال ضد الحاجة إليها، فالحاجة [إلى] جلب[4] المنفعة ودفع المضرة قد تكون إلى القول، وقد تكون (إلى الفعل)[5].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/ ٦٨٢ ـ ٦٨٣).
(٢) رواه أبو الشيخ كما في الدر (٣/ ٢٨). (٣) بيان تلبيس (١/ ١٧٢).
(٤) ما بين [ ] سقطت من الأصل وأكملها صاحب الدقائق.
(٥) خرم في الأصل وأكملها صاحب الدقائق بـ(إلى الفعل).

ولهذا كان المقصرون عن علم الحجج والدلالات، وعلم السياسة والإمارات مقهورين مع هذين الصنفين، تارة بالاحتياج إليهم إذا هجم عدو يفسد الدين بالجدل أو الدنيا بالظلم، وتارة بالاحتياج إليهم إذا هجم على أنفسهم من أنفسهم ذلك، وتارة بالاحتياج إليهم لتخليص بعضهم من شر بعض في الدين والدنيا، وتارة يعيشون في ظلهم في مكان ليس فيه مبتدع يستطيل عليهم، ولا وال يظلمهم وما ذاك إلا لوجود علماء الحجج الدافعة لأهل البدع والسياسة الدافعة للظلم.

ولهذا قيل: صنفان إذا صلحوا صلح الناس: العلماء والأمراء، وكما أن المنفعة فيهما فالمضرة منهما، فإن البدع والظلم لا تكون إلا فيهما: أهل الرياسة العلمية، وأهل الرياسة القدرية، ولهذا قال طائفة من السلف كالثوري وابن عيينة وغيرهما ما معناه: إن من نجا من فتنة البدع وفتنة السلطان فقد نجا من الشر كله، وقد بسطت القول في هذا في الصراط المستقيم عند قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩][1].

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾.

(ومنه قوله تعالى في الأنبياء: ﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ والأنبياء معصومون من الشرك ولكن المقصود بيان أن الشرك لو صدر من أفضل الخلق لأحبط عمله فكيف بغيره؟ وكذلك قوله لنبيه عليه الصلاة والسلام: «﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥] مع أن الشرك منه ممتنع، لكن بين بذلك أنه إذا قدر وجوده كان مستلزماً لحبوط عمل المشرك وخسرانه، كائناً من كان، وخوطب بذلك أفضل الخلق لبيان عظم هذا الذنب لا بغض قدر المخاطب، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة] ليبين سبحانه أنه ينتقم ممن يكذب في الرسالة كائناً من كان، وأنه لو قدر أنه غير الرسالة لانتقم منه) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (ولما ذكر الأنبياء ـ ذكرهم في الأنعام ـ وهم ثمانية عشر، قال:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤). (٢) الاستغاثة (٢٤٠ ـ ٢٤١).

﴿وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ فبهذا حصلت الفضيلة باجتبائه سبحانه وتعالى وهدايته إياهم إلى صراط مستقيم، لا بنفس القرابة.

وقد يوجب النسب حقوقاً، ويوجب لأجله حقوقاً، ويعلق فيه أحكاماً من الإيجاب والتحريم والإباحة، لكن الثواب والعقاب والوعد والوعيد على الأعمال لا على الأنساب) ا.هـ[1].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

(﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ فأخبر أنه يخص بهذا الهدى من يشاء من عباده، وأخبر أن هؤلاء هم الذين هداهم الله، فعلم أنه خص بهذا الهدى من اهتدى به دون من لم يهتد به ودل على تخصيص المهتدين بأنه هداهم ولم يهد من لم يهتد) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (ومثل هذا عن ابن عباس أنه سئل عن سجدة (ص) فقرأ قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ فنبيكم ممن أمر أن يقتدى بهم) ا.هـ[3].

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمُ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

(وقد قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾: قال ابن عباس ـ في رواية الوالبي عنه: هذه في الكفار. فأما من آمن أن الله على كل شيء قدير ـ فقد قدر الله حق قدره[4].

وذكروا في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ ما عرفوه حق معرفته، وما عظموه حق عظمته، وما وصفوه حق صفته، وهذه الكلمة ذكرها الله في ثلاثة مواضع: في الرد على المعطلة، وعلى المشركين، وعلى من أنكر إنزال شيء على البشر، فقال في الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ﴾ وقال في الحج: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ـ إلى قوله تعالى ـ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾

---

(١) منهاج السنة (٨/٢١٨).
(٢) منهاج السنة (٥/٣٠٨).
(٣) نظرية العقد (١١٠) وذكر هذه السجدة عن ابن عباس في البخاري (٤٨٠٦).
(٤) ابن جرير (١٣٥٤٢).

[الحج] وقال في الزمر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر].

وقد ثبت في الصحيحين[(١)] من حديث ابن مسعود: «أن حبراً من اليهود قال للنبي ﷺ: يا محمد! إن الله يوم القيامة يجعل السموات على أصبع، والأرض على أصبع والجبال والشجر على أصبع والماء والثرى وسائر الخلق على أصبع ثم يهزهن، ويقول: أنا الملك، قال: فضحك رسول الله ﷺ تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ الآية وفي الصحيحين أيضاً عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟ ثم يقول: أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» وكذلك في الصحيحين من حديث ابن عمر «يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون»[(٢)] وفي لفظ لمسلم قال: «يأخذ الجبار تبارك وتعالى سمواته وأرضه بيديه جميعاً، فجعل يقبضهما ويبسطهما، ثم يقول: أنا الملك، أنا الجبار، وأنا الملك، أين الجبارون؟! وأين المتكبرون؟! ويميل رسول الله ﷺ عن يمينه وعن شماله حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفل شيء منه حتى أني لأقول: أساقط هو برسول الله ﷺ» ا.هـ[(٣)].

وقال رحمه الله: (.. حدثنا ابن حميد، ثنا سلمة، ثنا ابن إسحاق، عن محمد بن سعيد قال: «أتى رهط من اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخلق فمن خلقه؟ فغضب النبي ﷺ حتى انتقع لونه ثم ساورهم غضباً لربه فجاءه جبريل فسكنه، وقال: اخفض عليك جناحك يا محمد، وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه قال: يقول الله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾﴾ [الإخلاص] إلى آخرها فلما تلاها عليهم النبي ﷺ قالوا له: صف لنا ربك كيف خلقه كيف عضده؟ كيف ساعده؟ وكيف ذراعه، فغضب النبي ﷺ أشد من غضبه الأول، وساورهم فأتاه جبريل فقال له: مثل مقالته الأولى وأتاه بجواب ما سألوه فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ[(٤)]﴾) ا.هـ[(٥)].

---

(١) البخاري (٦/ ١٥٨)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٢) مسلم (٢٧٨٨)، أما البخاري فروى: أنا الملك أين ملوك الأرض؟.

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٤ ـ ٢٥).

(٤) ابن جرير (٣٠/ ٣٤٣) وقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الأنعام: ٩١] في هذا الأثر هي آية الزمر وليست الأنعام.

(٥) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ وقد رُوي: ما عرفوه حق معرفته) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (والله سبحانه قد ذكر هذه الكلمة ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ في ثلاث مواضع؛ ليثبت عظمته في نفسه، وما يستحقه من الصفات، وليثبت وحدانيته وأنه لا يستحق العبادة إلا هو، وليثبت ما أنزله على رسله، فقال في الزمر: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] الآية. وقال في الحج: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الحج] وقال في الأنعام: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾.

وفي المواضع الثلاثة ذم الذين ما قدروه حق قدره من الكفار. فدل ذلك على أنه يجب على المؤمن أن يقدر الله حق قدره، كما يجب عليه أن يتقيه حق تقاته، وأن يجاهد فيه حق جهاده قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨] وقال: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران] والمصدر هنا مضاف إلى المفعول، والفاعل مراد أي حق جهاده الذي أمركم به، وحق تقاته التي أمركم بها، واقدروه قدره الذي بينه لكم وأمركم به، فصدقوا الرسول فيما أخبر، وأطيعوه فيما أوجب وأمر. وأما ما يخرج عن طاقة البشر فذلك لا يذم أحد على تركه، قالت عائشة: فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو[2].

ودلت الآية على أن له قدراً عظيماً؛ لا سيما قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] وفي تفسير ابن أبي طلحة عن ابن عباس قال: من آمن بأن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره.

وقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن مسعود أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية، لما ذكر له بعض اليهود أن الله يحمل السموات على أصبع، والأرضين على أصبع، والجبال على أصبع، والشجر والثرى على أصبع، وسائر الخلق على أصبع؛ فضحك رسول الله ﷺ تعجباً وتصديقاً لقول الحبر، وقرأ هذه الآية.

وعن ابن عباس قال: مر يهوديٌ بالنبي ﷺ فقال: يا أبا القاسم! ما تقول إذا وضع الله السماء على ذه؟ والأرض على ذه، والجبال والماء على ذه، وسائر الخلق

---

(١) درء تعارض العقل (٨/ ٥٢٠).

(٢) لم أعرفه.

على هذه؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] رواه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي الضحى عن ابن عباس، وقال: غريب حسن صحيح[١].

وهذا يقتضي أن عظمته أعظم مما وصف ذلك الحبر، فإن الذي في الآية أبلغ، كما في الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض؟» وفي الصحيحين عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أين الملوك؟ أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» ورواه مسلم أبسط من هذا، وذكر فيه أنه يأخذ الأرض بيده الأخرى.

وقد روى ابن أبي حاتم حدثنا أبي ثنا عمرو بن رافع، ثنا يعقوب بن عبد الله عن جعفر عن سعيد بن جبير، قال: تكلمت اليهود في صفة الرب تبارك وتعالى، فقالوا ما لم يعلموا ولم يروا فأنزل الله على نبيه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر] فجعل صفته التي وصفوه بها شركاً[٢].

وقال: حدثنا أبي، ثنا أبو نعيم، ثنا الحكم يعني أبا معاذ عن الحسن، قال: عمدت اليهود فنظروا في خلق السموات والأرض والملائكة، فلما فرغوا أخذوا يقدرونه. فأنزل الله تعالى على نبيه: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ وهذا يدل على أنه أعظم مما وصفوه وأنهم لم يقدروه حق قدره[٣].

وقوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] فكل من جعل مخلوقاً مثلاً للخالق في شيء من الأشياء فأحبه مثل ما يحب الخالق، أو وصفه بمثل ما يوصف به الخالق فهو مشرك سوى بين الله وبين المخلوق في شيء من الأشياء فعدل بربه. والرب تعالى لا كفؤ له ولا سمى له ولا مثل له، ومن جعله مثل المعدوم والممتنع فهو شر من هؤلاء فإنه معطل ممثل، والمعطل شر من المشرك) ا.هـ[٤].

---

(١) الترمذي (٣٢٣٨)، وأحمد (١/ ٤٥٧) وغيره وهو حديث صحيح.
(٢) قريباً منه في ابن جرير (١٣٥٣٥) ونسبه في الدر لابن أبي حاتم (٣/ ٢٩).
(٣) الدر المنثور (٥/ ٣٣٥) ونسبه لابن أبي حاتم.
(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ١٦٠ ـ ١٦٤).

وقال رحمه الله: (كقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ﴾ فإن الخطاب لما كان مع من يقر بنبوة موسى من أهل الكتاب ومع من ينكرها من المشركين ذكر ذلك بقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى﴾؟ وقد بين البراهين الدالة على صدق موسى في غير موضع.

وعلى قراءة من قرأ يبدونها كابن كثير وأبي عمرو[1] جعلوا الخطاب مع المشركين وجعلوا قوله: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ احتجاجاً على المشركين بما جاء به محمد؛ فالحجة على أولئك نبوة موسى، وعلى هؤلاء نبوة محمد، ولكل منهما من البراهين ما قد بين بعضه في غير موضع.

وعلى قراءة الأكثرين بالتاء هو خطاب لأهل الكتاب، وقوله: ﴿وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ بيان لما جاءت به الأنبياء مما أنكروه، فعلمهم الأنبياء ما لم يقبلوه ولم يعلموه. فاستدل بما عرفوه من أخبار الأنبياء وما لم يعرفوه) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وقد قال سبحانه: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر] فأخبر سبحانه أنهم ما قدروا الله حق قدره وهو يقبض الأرض بيده ويطوي السماء بيمينه كما استفاضت بذلك الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، مثل حديث أبي هريرة وابن عمر وابن مسعود كلها في الصحيحين، ومثل حديث ابن عباس وغيره من الأحاديث الحسان، وقال أيضاً في الآية الأخرى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ فالآية الأولى في الأصل الأول من الإسلام وهو «التوحيد» والثانية في الأصل الثاني وهو «الرسالة» وهؤلاء الجهمية لهم قدح في كلا الأصلين؛ فإنهم لا يقدرون الله حق قدره فلا يقبض عندهم أرضاً ولا يطوي السماء بيمينه؛ بل ليس له قدر في الحقيقة الخارجية عندهم، وإنما قدره عندهم ما يقوم بالأنفس والأذهان، فيثبتون لقدره الوجود الذهني دون العيني، وكذلك عندهم في الحقيقة ما تكلم بشيء حتى ينزله على بشر، لا سيما الصابئة المتفلسفة منهم؛ فإن الكلام إنما يفيض عندهم على قلب النبي من العقل الفعال لا من رب العالمين) ا.هـ[3].

---

(١) زاد المسير (٣/ ٨٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٦٥ ـ ١٦٦).

(٣) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ١٩٧ ـ ١٩٨).

وقال رحمه الله: (وأدخلوا في ذلك كلامه لكونه يسمى «شيئاً» في مثل قوله: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ﴾؟ ولم ينظروا في أن ذلك مثل تسمية علمه «شيئاً» في قوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وتسمية نفسه شيئاً في قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩] وأن قوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعم بحسب ما اتصل به من الكلام.

فإن الاسم تتنوع دلالته بحسب قيوده ففي قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩] دخل في ذلك نفسه لأنها تصلح أن تعلم وفي قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ٤٠] دخل في ذلك ما يصلح أن يكون مقدوراً وذلك يتناول كل ما كانت ذاته ممكنة الوجود، وقد يقال: دخل في ذلك كل ما يسمى شيئاً بمعنى «مشيئاً» فإن «الشيء» في الأصل مصدر وهو بمعنى المشيء، فكل ما يصلح أن يشاء فهو عليه قدير. وإن شئت قلت: قدير على كل ما يصلح أن يقدر عليه، والممتنع لذاته ليس شيئاً باتفاق العقلاء وفي قوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] قد علم أن الخالق ليس هو المخلوق، وأنه لا يتناوله الاسم، وإنما دخل فيه كل شيء مخلوق: وهي الحادثات جميعها) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وأما ما يتوهمه طائفة من غالطي المتعبدين في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ ويتوهمون أن المراد قول هذا الاسم فخطأ واضح؛ ولو تدبروا ما قبل هذا تبين مراد الآية؛ فإنه سبحانه قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ﴾ أي قل: الله أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، فهذا كلام تام، وجملة اسمية مركبة من مبتدأ وخبر، حذف الخبر منها لدلالة السؤال على الجواب.

وهذا قياس مطرد في مثل هذا في كلام العرب كقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم﴾ الآية [الزمر: ٣٨]. وقوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [النمل] وكذلك ما بعدها، وقوله: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون] على قراءة

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣١).

أبي عمرو. وتقول في الكلام: من جاء؟ فتقول: زيد. ومن أكرمت؟ فتقول: زيداً. وبمن مررت؟ فتقول بزيد. فيذكرون الاسم الذي هو جواب من ويحذفون المتصل به؛ لأنه قد ذكر في السؤال مرة، فيكرهون تكريره من غير فائدة بيان، لما في ذلك من التطويل والتكرير) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (ثم كثيراً ما يذكر بعض الشيوخ أنه يحتج على قول القائل: «الله» بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ ويظن أن الله أمر نبيه بأن يقول الاسم المفرد، وهذا غلط باتفاق أهل العلم، فإن قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ معناه الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى. وهو جواب لقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى. رد بذلك قول من قال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فقال: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ ثم قال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أنزله ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ هؤلاء المكذبين ﴿فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (ومن زعم أن هذا ذكر العامة، وأن ذكر الخاصة هو الاسم المفرد، وذكر خاصة الخاصة هو الاسم المضمر، فهم ضالون غالطون. واحتجاج بعضهم على ذلك بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ﴾ من أبين غلط هؤلاء، فإن الاسم هو مذكور في الأمر بجواب الاستفهام. وهو قوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ إلى قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي الله الذي أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، فالاسم مبتدأ وخبره قد دل عليه الاستفهام، كما في نظائر ذلك تقول: من جاره فيقول زيد) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (وقد بين الله حال هؤلاء في مثل قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فذكر الله إنزال الكتابين الذين لم ينزل من عند الله كتاب أهدى منهما - التوراة والقرآن - كما جمع بينهما في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [القصص].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٥٥٨ - ٥٥٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٢٢٨).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/٢٢٦)، والرد على المنطقيين (٣٦).

وكذلك الجن لما استمعت القرآن: ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ الآية [الأحقاف: ٣٠] وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ﴾ [الأحقاف: ١٠] ولهذا قال النجاشي لما سمع القرآن: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة.

ثم ذكر تعالى حال الكذاب والمتنبئ. فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ فجمع في هذا بين من أضاف ما يفتريه إلى الله، وبين من يزعم أنه يوحى إليه ولا يعين من أوحاه، فإن الذي يدعي الوحي لا يخرج من هذين القسمين.

ويدخل في «القسم الثاني» من يري عينيه في المنام ما لا تريا، ومن يقول: ألقي في قلبي وألهمت ونحو ذلك إذا كان كاذباً.

ويدخل في «القسم الأول» من يقول: قال الله لي أو أمرني الله أو وافقني أو قال لي ونحو ذلك؛ بخيالات أو إلهامات يجدها في نفسه ولا يعلم أنها من عند الله، بل قد يعلم أنها من الشيطان، مثل مسيلمة الكذاب. ونحوه. ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ فهذه حال من زعم أن البشر يمكنهم أن يأتوا بمثل كلام الله، أو أن هذا الكلام كلام البشر بفضيلة وقوة من صاحبه، فإذا اجتهد المرء أمكن أن يأتي بمثله. وهذا يعم من قال إنه يمكن معارضة القرآن، كابن أبي سرح في حال ردته، وطائفة متفرقين من الناس، ويعم المتفلسفة الصابئة المنافقين والكافرين؛ ممن يزعم أن رسالة الأنبياء كلام فاض عليهم قد يفيض على غيرهم مثله، فيكون قد أنزل مثل ما أنزل الله في دعوى الرسل؛ لأن القائل (سأنزل مثل ما أنزل الله) قد يقوله غير معتقد أن الله أنزل شيئاً؛ وقد يقوله معتقداً أن الله أنزل شيئاً) ا.هـ[1].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

(يخبر عن الله تعالى بأنه أرسله ولا أعظم فرية ممن يكذب على الله ﷻ كما قال

(١) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٤ ـ ٢٦).

تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ ذكر هذا بعد قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ فنقض سبحانه دعوى الجاحد النافي للنبوة بقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ﴾ وذلك الكتاب ظهر فيه من الآيات والبينات واتبعه كل الأنبياء والمؤمنين وحصل فيه ما لم يحصل في غيره فكانت البراهين والدلائل على صدقه أكثر وأظهر من أن تذكر بخلاف الإنجيل وغيره وأيضاً فإنه أصل والإنجيل تبع له فمن ذلك الخبر به وعنه إلا فيما أحله المسيح وهذا يقول سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾ [القصص: ٤٨] أي القرآن والتوراة وفي القراءة الأخرى قالوا ساحران أي محمد والقرآن وذلك قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [المزمل] وكذلك قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧] وكذلك قول الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠] ولهذا كانت قصة موسى هي أعظم قصص الأنبياء المذكورين في القرآن وهي أكبر من غيرها وتبسط أكثر من غيرها قال عبد الله بن مسعود: كان رسول الله ﷺ عامة نهاره يحدثنا عن بني إسرائيل، ولما قرر الصدق بين حال الكذابين بأنهم ثلاثة أصناف إذ لا يخلو الكذاب من أن يضيف الكذب إلى الله تعالى ويقول أنه أنزله أو يحذف فاعله ولا يضيفه إلى أحد أو أن يقول أنه هو الذي وضعه معارضاً فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ وأما المخبر عنه فإنه الله تعالى) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (قال ابن إسحاق: حدثني شرحبيل بن سعد أن فيه نزلت: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ فلما دخل رسول الله ﷺ مكة فر إلى عثمان بن عفان ـ وكان أخاه من الرضاعة ـ

(١) الفتاوى (أصفهانية) (٥/ ١٣٦).

فغيبه عنده حتى اطمأن أهل مكة، فأتى به رسول الله ﷺ، فاستأمن له، فصمت رسول الله ﷺ طويلاً وهو واقف عليه، ثم قال: «نعم» فانصرف به، فلما ولى قال رسول الله ﷺ: «ما صمت إلا رجاء أن يقوم إليه بعضكم فيقتله» فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله إلا أومأت إلي فأقتله، فقال رسول الله ﷺ: «إن النبي لا يقتل بالإشارة»[١].

وقال ابن إسحاق في رواية إبراهيم بن سعد عنه: حدثني بعض علمائنا أن ابن أبي سرح رجع إلى قريش فقال: والله لو أشاء لقلت كما يقول محمد وجئت بمثل ما يأتي به، إنه ليقول الشيء وأصرفه إلى شيء، فيقول: أصبت، ففيه أنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ فلذلك أمر رسول الله ﷺ بقتله[٢]) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وقد جمع الله هؤلاء في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾. فذكر سبحانه من يفتري الكذب على الله. ومن يقول أنه يوحى إليه، ومن يزعم أنه يقول كلاماً مثل الكلام الذي أنزله الله) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾. وهؤلاء الأقسام الثلاثة هم أعداء الرسل. فإن أحدهم إذا أتى بما يخالفه، إما أن يقول: إن الله أنزله علي فيكون قد افترى على الله، أو يقول: أوحي إليه ولم يسم من أوحاه، أو يقول: أنا أنشأته، وأنا أنزل مثل ما أنزل الله، فإماأن يضيفه إلى الله أو إلى نفسه أو لا يضيفه إلى أحد.

وهذه الأقسام الثلاثة هم من شياطين الإنس والجن، الذين يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾﴾

---

(١) هذه رواية ابن إسحاق وكذا ذكرها القرطبي عنه في تفسيره (٧/ ٤٠) وذكر قريباً منه، الطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٤٦٩).

(٢) ذكر الطبري رواية عن السدي (١٣٥٥٦) بهذا المعنى وفي الحاكم رواية لذلك (٣/ ٤٥) عن شرحبيل بن سعد وكذا أخرجه ابن أبي حاتم عن أبي خلف الأعمى كما في الدر (٣/ ٣٠).

(٣) الصارم المسلول (١١٨).

(٤) درء تعارض العقل (٥/ ٢٠٩).

[الفرقان] والله أعلم، والحمد لله) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ ومن قال: ﴿سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ وذكر في هذا الكلام جميع أصناف الكاذبين الذين يعارضون رسله الصادقين كما ذكر فيما قبله حال الكاذبين في قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾ ثم قال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ الآية فأن الكاذب إما أن يقول: إن غيري أنزل علي وإما أن يقول أنا أصنف مثل هذا القرآن وإذا قال غيري أنزل عليَّ فإما أن يعينه فيقول أن الله أنزله علي وإما أن يقول أوحي ولا يعين من أوحاه فذكر الأصناف الثلاثة فقال: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ فهذان نوعان من جنس ثم قال ومن لم يقل أو قال إذ كان هذا معارضاً لا يدعى أنه رسول فقال ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله وهؤلاء المعارضون قد تحداهم في غير موضع وقال: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء] والرسول أخبر بهذا خبراً تاماً في أول الأمر وهذا لا يمكن إلا مع قطعه أنه على الحق وإلى الآن لم يوجد أحد أنزل مثل ماأنزل الله وقوله ومن قال سأنزل ولم يقل أقدر أن أنزل فإن قوله سأنزل هو وعد بالفعل وبه يحصل المقصود بخلاف قوله أقدر فإنه لا يحصل به غرض المعارض وإنما يحصل إذا فعل فمن وعد بإنزال مثل ما أنزل كان من أظلم الناس وأكذبهم إذ كان قد تبين عجز جميع الثقلين الإنس والجن عن أن يأتوا بمثل هذا القرآن وقوله مثل ما أنزل الله يقتضي أن كل ما أنزله الله على أوليائه فهو معجز لا يقدر عليه إلا الله كالتوراة والإنجيل والزبور وهذا حق فإن في ذلك من أنباء الغيب ما لا يعلمه إلا الله وفيه أيضاً من تأييد الرسل بذلك ما لا يقدر على أن يرسل تلك الرسالة إلا الله فلا يقدر أحد أن ينزل مثل ماأنزل الله على نبيه فيكون به مثل الرسول ولا أن يرسل به غيره) ا.هـ[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/١٥٦).

(٢) النبوات (٢٢٩ ـ ٢٣٠).

وقال رحمه الله: (إنه إما أن يحذف الفاعل أو يذكره، وإذا ذكره فإما أن يجعله من قول الله، أو من قول نفسه، فإنه إذا جعله من كلام الشياطين لم يقبل منه، وما جعله من كلام الملائكة فهو داخل فيما يضيفه إلى الله، وفما حذف فاعله، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

وتدبر كيف جعل الأولين في حيز الذي جعله وحياً من الله ولم يسم الموحي؟ فإنهما من جنس واحد في ادعاء جنس الإنباء، وجعل الآخر في حيز الذي ادعى أن يأتي بمثله، ولهذا قال: ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، ثم قال: ﴿وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ فالمفتري للكذب والقائل: أوحي إلي ولم يوح إليه شيء: من جملة الاسم الأول، وقد قرن به الاسم الآخر، فهؤلاء الثلاثة المدعون لشبه النبوة) ا.هـ[1].

وقال في أسباب نزول هذه الآية:

(وقد روى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس مثل هذا في هذه القصة وإن كان هذا الإسناد ليس بثقة، قال: عن ابن أبي سرح أنه كان تكلم بالإسلام، وكان يكتب لرسول الله ﷺ في بعض الأحايين، فإذا أملي عليه ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٠٩] كتب ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣] فيقول رسول الله ﷺ: «هذا أو ذاك سواء» فلما نزلت: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [المؤمنون] أملاها عليه، فلما انتهى إلى قوله: ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] عجب عبد الله بن سعد فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، فقال رسول الله ﷺ: «كذا أنزلت علي، فاكتبها» فشك حينئذٍ وقال: لئن كان محمد صادقاً لقد أوحي إلي كما أوحي إليه، ولئن كان كاذباً لقد قلت كما قال، فنزلت هذه الآية[2]) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (وروي فيها وجه آخر رواه الإمام أحمد في «الناسخ

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٨٦).

(٢) مرّ الكلام على هذه الروايات ورواية الكلبي لا يعتد بها إنما تذكر استشهاداً وتعضيداً لأصل القصة، وإلا فإنَّ الكلبي لا يعتد به.

(٣) الصارم المسلول (١٣٠).

والمنسوخ»[١]: حدثنا مسكين بن بكير ثنا معان قال: وسمعت خلفاً يقول: كان ابن أبي سرح كتب للنبي ﷺ القرآن، فكان ربما سأل النبي ﷺ عن خواتم الآي، «يعملون» و«يفعلون» ونحو ذا، فيقول له النبي ﷺ: «اكتب أي ذلك شئت» قال: فيوفقه الله للصواب من ذلك، فأتى أهل مكة مرتداً، فقالوا: يا ابن أبي سرح كيف كنت تكتب لابن أبي كبشة القرآن؟ قال: أكتبه كيف شئت، قال: فأنزل الله في ذلك: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ الآية كلها) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى في الأنعام: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ وهذه صفة حال الموت وقوله: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ﴾ دل على وجود النفس التي تخرج من البدن، وقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ دل على وقوع الجزاء عقب الموت.

وقال تعالى في الأنفال: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾﴾ [الأنفال] وهذا ذوق له بعد الموت) ا.هـ[٣].

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

(قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ﴾ وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ والفلق: فعل بمعنى مفعول، كالقبض بمعنى المقبوض فكل ما فلقه الرب فهو فلق، قال الحسن: الفلق كل ما انفلق عن شيء: كالصبح، والحب، والنوى.

قال الزجاج[٤]: وإذا تأملت الخلق بان لك أن أكثره عن انفلاق كالأرض بالنبات والسحاب بالمطر.

وقد قال كثير من المفسرين: الفلق الصبح، فإنه يقال هذا أبين من فلق الصبح، وفرق الصبح.

---

(١) هذا على شرط صاحب كتاب «مرويات الإمام أحمد بن حنبل في التفسير» وكتاب «الناسخ والمنسوخ» مفقود فينبغي الاستفادة من مرويات أحمد التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره.

(٢) الصارم المسلول (١٢٩).

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

(٤) «زاد المسير» (٩/ ٢٧٣).

وقال بعضهم: الفلق الخلق كله، وأما من قال: إنه واد في جهنم أو شجرة في جهنم، أو أنه اسم من أسماء جهنم[١]، فهذا أمر لا تعرف صحته، لا بدلالة الاسم عليه، ولا بنقل عن النبي ﷺ ولا في تخصيص ربوبيته بذلك حكمة، بخلاف ما إذا قال رب الخلق، أو رب كل ما انفلق، أو رب النور الذي يظهره على العباد بالنهار، فإن في تخصيص هذا بالذكر ما يظهر به عظمة الرب المستعاذ به، وإذا قيل: الفلق يعم ويخص، فبعمومه للخلق أستعيذ من شر ما خلق، وبخصوصه للنور النهاري أستعيذ من شر غاسق إذا وقب) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: ومما يشبه هذا قوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ نصب هذا على محل الليل المجرور، فإن اسم الفاعل كالمصدر، ويضاف تارة ويعمل تارة أخرى) ا.هـ[٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

(فقوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي من العلو، مع قطع النظر عن جسم معين) ا.هـ[٤].

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

(وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال الكلبي[٥]: نزلت في الزنادقة قالوا: إن الله وإبليس شريكان، فالله خالق النور والناس والدواب والأنعام، وإبليس خالق الظلمة والسباع والحيات والعقارب) ا.هـ[٦].

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ

---

(١) ذكر ابن القيم في «بدائع الفوائد» (٣/ ١٠٩) في «جزء من تفسير الإمام أحمد» نقلاً عن الإمام أحمد. وروي عن كعب الأحبار وعن زيد بن علي عن آبائه وعن عمرو بن عبسة والسدي، وحكم ابن كثير بنكارة المرفوع وقد رجح ابن جرير والإمام البخاري وابن كثير أنه الصبح (أخذنا هذا من تعليق محققي المرويات للإمام أحمد).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٥٠٤ ـ ٥٠٥).
(٣) منهاج السنة (٧/ ٢٠٣).
(٤) منهاج السنة (٥/ ٤٤٠).
(٥) البغوي (٢/ ٩٨)، وزاد المسير (٣/ ٩٦).
(٦) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٧١).

عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ يعم جميع الأنواع التي تذكر في هذا الباب عن بعض الأمم، كما أن ما نفاه من اتخاذ الولد يعم أيضاً جميع أنواع الاتخاذات الاصطفائية كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة]) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ قال بعض المفسرين كالثعلبي: وهم كفار العرب قالوا الملائكة والأصنام بنات الله، واليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله[2]) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (فأما قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ فإن قوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي مبدعهما، كما ذكر مثل ذلك في البقرة؛ وليس المراد أنهما بديعة سماواته وأرضه، كما تحتمله العربية لولا السياق. لأن المقصود نفي ما زعموه من خرق البنين والبنات له، ومن كونه اتخذ ولداً.

وهذا ينتفي بضده كونه أبدع السموات، ثم قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾؟ وذكر ثلاث أدلة على نفي ذلك:

أحدها: كونه ليس له صاحبة؛ فهذا نفي الولادة المعهودة: وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ نفي للولادة العقلية، وهي التولد؛ لأن خلق كل شيء ينافي تولدها عنه. وقوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ يشبه ـ والله أعلم ـ أن يكون لما ادعت النصارى أن المتحد به هو الكلمة التي يفسرونها بالعلم، والصابئة القائلون بالتولد والعلة، لا يجعلونه عالماً بكل شيء ـ وذكر أنه بكل شيء عليم، لإثبات هذه الصفة له، رداً على الصابئة، ونفيها عن غيره رداً على النصارى) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٦٩).
(٢) زاد المسير (٣/ ٩٦ ـ ٩٧).
(٣) مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٧٢).
(٤) مجموع الفتاوى (٢/ ٤٤٤ ـ ٤٤٥).

عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ يعم جميع الأنواع التي تذكر في هذا الباب عن بعض الأمم، كما أن ما نفاه من اتخاذ الولد يعم أيضاً جميع أنواع الاتخاذات الاصطفائية) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾، والكلام على هذه الآيات وما فيها من الأسرار مذكور في غير هذا الموضع، وقد بين هناك أن هؤلاء الآيات تضمنت إبطال قول المبطلين من المشركين والصابئين وأهل الكتاب، [و] تضمنت إبطال ما كان يقوله مشركو العرب، وما يقوله النصارى، وما يقوله مشركو الصابئة وفلاسفتهم، الذين يقولون بتولد العقول، أو العقول والنفوس عنه.

ومن أراد الجمع بين كلامهم وبين النبوات سماها ملائكة، ويقول: العقل كالذكر، والنفس كالأنثى، فهؤلاء خرقوا له بنين وبنات بغير علم.

ثم بين سبحانه أنه مبدع للسموات والأرض، والإبداع خلق الشيء على غير مثال، بخلاف التولد الذي يقتضي تناسب الأصل والفرع وتجانسهما.

والإبداع خلق الشيء بمشيئة الخالق وقدرته، مع استقلال الخالق به وعدم شريك له، والتولد لا يكون إلا «بجزء من المولد» بدون مشيئته وقدرته، ولا يكون إلا بانضمام أصل آخر إليه.

وقال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فبين بطلان كون الولد له من غير صاحبة لقوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾.

فإن التولد لا يكون إلا من أصلين، وليس في الموجودات ما يكون وحده مولداً لشيء، بل قد خلق الله تعالى من كل شيء زوجين، وهو سبحانه الفرد الذي لا زوج له) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وكل من قال: إن لله ولداً، لزمه أن يكون له صاحبة بأي وجه فسر الولادة، وأن يكون له ولداً حادثاً، ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٧/٢٦٩). (٢) الجواب الصحيح (٤/٤٦٩).

﴿وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

فاستفهم تعالى استفهام إنكار، ليبين امتناع أن يكون له ولد، إذ لم تكن له صاحبة فإن الولد لا يكون إلا من أصلين، وهذا مما ينبغي أن يتفطن له، فإن جعل ما يلزم الشيء الواحد متولداً عنه، لا يعرف، لا سيما صفاته القائمة به اللازمة له، كعلمه، وحياته، لا سيما الصفات القديمة الأزلية اللازمة لذات رب العالمين، الذي لم يزل ولا يزال موصوفاً بها، فإن صفات العبد اللازمة له، كحياته، وقدرته، ونحو ذلك ليست متولدة عنه عند جميع العقلاء) ا.هـ[1].

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

(ولكن خلق كل شيء خلقاً، وأنه خلق من كل شيء زوجين اثنين، ولهذا قال مجاهد[2] ـ وذكره البخاري في صحيحه ـ في الشفع والوتر: أن الشفع هو الخلق، فكل مخلوق له نظير، والوتر هو الله الذي لا شبيه له فقال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾، فقوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ تقديره من أين يكون له ولد؟ فـ﴿أَنَّىٰ﴾ في اللغة بمعنى «من أين ذلك» وهذا استفهام إنكار.

فبين سبحانه أنه يمتنع أن يكون له ولد، ولم تكن له صاحبة، مع أنه خالق كل شيء، وأن هذا الولد يمتنع أن يكون، وأن هذا الامتناع مستقر في صريح المعقول) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فنفى التولد عنه لامتناع التولد من شيء واحد، وأن التولد إنما يكون بين اثنين، وهو سبحانه لا صاحبة له، وأيضاً فإنه خلق كل شيء، وخلقه لكل شيء يناقض أن يتولد عنه شيء. وهو بكل شيء عليم، وعلمه بكل شيء يستلزم أن يكون

---

(١) درء تعارض العقل (٧/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩).
(٢) ذكره البخاري في تفسير سورة الفجر مبوباً، ووصله في تغليق التعليق (٤/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧).
(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ١٣٠). (٤) الجواب الصحيح (٤/ ٢٨٣).

فاعلاً بإرادته، فإن «الشعور» فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع. فيمتنع مع كونه عالماً أن يكون كالأمور الطبيعية التي يتولد عنها الأشياء بلا شعور، كالحار والبارد. فلا يجوز إضافة الولد إليه بوجه، سبحانه) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وقد سمى الله الزوجة صاحبة في قوله: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (فقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾، بيان أن التولد لا يكون إلا بين اثنين، وهو سبحانه لا صاحبة له، فكيف يكون له ولد؟

وهكذا القدر لما كان مستقراً في فطر الناس، كان عامة ما يسمونه تولداً ونتاجاً إنما يكون عن أصلين، فالأمور التي تسمى متولدات ـ كالشبع والري ونحو ذلك ـ إنما حدثت عن أصلين: فعل العبد، والأسباب الأخر المعاونة له.

وكذلك النظار يقولون: النتيجة لا تكون إلا عن مقدمتين، ويشبهون حصول النتيجة عن المقدمتين بحصول النتاج عن الأصلين من الحيوان، لأن هذين أصلان في التوليد، وهذين أصلان في التولد.

ثم قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ وذلك بيان لأنه إذا كان خالقاً لجميع الأشياء، فكيف يكون فيها ما هو متولد عنه؟ والجمع بين الخلق والتوليد ممتنع، كما يمتنع الجمع بين التولد والتعبد) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ كما قال في الآية الأخرى: ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم] فإن إحاطة العلم والعد بهم فيه بيان أنه لا يكون منهم إلا ما يعلمه، لا ينفردون عنه بشيء، كما ينفرد الولد عن والده، والشريك عن شريكه) ا.هـ[٤].

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

(وقد قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ﴾ قال ابن أبي حاتم في «تفسيره»: حدثنا أبو زرعة، ثنا منجاب بن الحارث، ثنا بشر بن عمارة عن أبي روق، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله ﷻ: ﴿لَّا

---

(١) الرد على المنطقيين (٢١٨ ـ ٢١٩).
(٢) منهاج السنة (٨/ ٣٨٢).
(٣) درء تعارض العقل (٧/ ٣٧١ ـ ٣٧٢).
(٤) درء تعارض العقل (٧/ ٣٧٣).

﴿تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾، قال: لو أن الجن والإنس، والشياطين والملائكة؛ منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً[١] ـ فمن هذه عظمته، كيف يحصره مخلوق من المخلوقات، سماء أو غير سماء!؟ حتى يقال: إنه إذا نزل إلى السماء الدنيا صار العرش فوقه، أو يصير شيء من المخلوقات يحصره ويحيط به ﷻ) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (قال: حدثنا أبو زرعة، ثنا منجاب بن الحارث، أنبأ بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾، قال: «لو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ أن خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً».

وهذا له شواهد، مثل ما في الصحاح في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]. قال ابن عباس: ما السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن في يد الرحمٰن إلا كخردلة في يد أحدكم[٣]) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي متناهياً لا تحيط به ولا تدركه متناهياً محدوداً، وهذا الذي ذكره جيد وإن كان لم يستوف حجته؛ فإن أئمة السلف بهذا فسروا الآية. وما ذكرته المعتزلة عن ابن عباس أنه تأول الآية على نفي الرؤية كذب على ابن عباس؛ بل قد ثبت عنه بالتواتر أنه كان يثبت رؤية الله، وفسر قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ بأنها لا تحيط. وضرب المثل بالسماء فقال: ألست ترى السماء؟ فقال: بلى، فقال: أكلها ترى؟ قال: لا: قال: فالله أعظم[٥]) ا.هـ[٦].

---

(١) الحديث أخرجه العقيلي في الضعفاء (١/ ١٤٠)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ١٠)، وابن الجوزي في الموضوعات عن ابن عدي وعلته الكلبي (١/ ١١٤ ـ ١١٥) والحديث استنكره الذهبي في تاريخه، وأخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر (٣/ ٣٦)، وأبو الشيخ وابن مردويه واستغربه العلامة ابن كثير في تفسير هذه الآية (٢/ ١٦٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٥/ ٤٨٢).

(٣) ابن جرير (٢٤/ ٢٥).

(٤) مجموع الفتاوى (١٦/ ٤٣٩).

(٥) عزاه السيوطي في «الدر» (٣/ ٣٧) لابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس.

(٦) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٤٠٧، ٢٤٠، ١٩٧)، منهاج السنة (٢/ ٥٦٧ ـ ٥٦٨)، درء تعارض العقل (١/ ٢٣٧).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ فقال له عكرمة: أليس ترى السماء: قال، بلى، قال: أفكلها ترى ففي هذه أن عكرمة أخبر قدام ابن عباس أن إدراك البصر هي رؤية المدرك كله دون رؤية بعضه فالذي يرى السماء ولا يراها كلها ولا يكون مدركاً لها وجعل هذا تفسير لقوله لا تدركه الأبصار وأقره ابن عباس على ذلك) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾، وقد قال غير واحد: من السلف والعلماء إن «الإدراك» هو الإحاطة فالعباد يرون الله تعالى عياناً ولا يحيطون به. فهذا وأمثاله مما أخبر الله به ورسوله) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (بل اجتهدت فقالت: «من قال: إن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية» واستدلت بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[٣]) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (لقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾، ولقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١]، كما احتجت عائشة بهاتين الآيتين على انتفاء الرؤية في حق النبي ﷺ، وإنما يدلان بطريق العموم) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (مثل قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي لا تحيط به، ومثل قوله ﷺ: «نور أنى أراه» وقال: «رأيت نوراً»[٦]) ا.هـ[٧].

وقال رحمه الله: (﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾؛ فإنها تدل على إثبات الرؤية ونفي الإحاطة) ا.هـ[٨].

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ الإدراك عند السلف والأكثرين هو الإحاطة وقال طائفة: هو الرؤية، وهو ضعيف؛ لأن نفي الرؤية عنه لا مدح فيه، فإن العدم لا يرى. وكل وصف يشترك فيه الوجود والعدم لا يستلزم أمراً ثبوتياً فلا يكون فيه مدح، إذ هو عدم محض. بخلاف ما إذا قيل لا يحاط به فإنه يدل

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٧٣).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٨١).
(٣) مسلم (٣/ ١٠ ـ النووي).
(٤) مختصر الفتاوى المصرية (٥٧٣)، وقوله (اجتهدت) أي عائشة أم المؤمنين.
(٥) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٣).
(٦) مسلم (١٧٨).
(٧) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ١٩٧).
(٨) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٨٩).

على عظمة الرب ﷻ. وإن العباد مع رؤيتهم له لا يحيطون به رؤية، كما أنهم مع معرفته لا يحيطون به علماً، وكما أنهم مع مدحه والثناء عليه لا يحيطون ثناء عليه؛ بل هو كما أثنى على نفسه المقدسة، ولهذا قال أفضل الخلق وأعلمهم: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[(١)] وهذه الأمور مبسوطة في موضع آخر) ا.هـ[(٢)].

وقال رحمه الله: (وأما احتجاج النفاة بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فالآية حجة عليهم لا لهم؛ لأن الإدراك إما أن يراد به مطلق الرؤية، أو الرؤية المقيدة بالإحاطة. والأول باطل؛ لأنه ليس كل من رأى شيئاً يقال إنه أدركه، كما لا يقال أحاط به كما سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن ذلك فقال: ألست ترى السماء؟ قال: بلى، قال: أكلها ترى؟ قال: لا، ومن رأى جوانب الجيش أو الجبل أو البستان أو المدينة لا يقال أنه أدركها، وإنما يقال أدركها إذا أحاط بها رؤية. ونحن في هذا المقام ليس علينا بيان ذلك، وإنما ذكرنا هذا بياناً لسند المنع؛ بل المستدل بالآية عليه أن يبين أن الإدراك في لغة العرب مرادف للرؤية، وأن كل من رأى شيئاً يقال في لغتهم إنه أدركه. وهذا لا سبيل إليه؛ كيف وبين لفظ «الرؤية» ولفظ «الإدراك» عموم وخصوص. فقد تقع رؤية بلا إدراك، وقد يقع إدراك بلا رؤية. أو اشتراك لفظي، فإن الإدراك يستعمل في إدراك العلم وإدراك القدرة؛ فقد يدرك الشيء بالقدرة وإن لم يشاهده كالأعمى الذي طلب رجلاً هارباً فأدركه ولم يره، وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء] فنفى موسى الإدراك مع إثبات الترائي، فعلم أنه قد يكون رؤية بلا إدراك، والإدراك هنا هو إدراك القدرة أي ملحقون محاط بنا، وإذا انتفى هذا الإدراك فقد تنتفي إحاطة البصر أيضاً)[(٣)].

وقد جاء حديث رواه ابن أبي حاتم، قال: حدثنا أبو زرعة، ثنا منجاب بن الحارث، أنبأ بشر بن عمارة، عن أبي روق، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ قال: لو أن الجن والإنس والشياطين والملائكة منذ خلقوا إلى أن فنوا صفوا صفاً واحداً ما أحاطوا بالله أبداً. وهذا له شواهد مثل ما في الصحاح في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧] قال ابن عباس: ما

---

(١) مسلم (٤٨٦).
(٢) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٨٩).
(٣) بياض بالأصل.

السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن في كف الرحمٰن إلا كخردلة في يد أحدكم.

ومما يبين ذلك أن الله تعالى ذكر هذه الآية يمدح بها نفسه ﷻ، ومعلوم أن كون الشيء لا يرى ليس صفة مدح؛ لأن النفي المحض لا يكون مدحاً إن لم يتضمن أمراً ثبوتياً، لأن المعدوم أيضاً لا يرى، والمعدوم لا يمدح، فعلم أن مجرد نفي الرؤية لا مدح فيه. وإن كان المنفي هو الإدراك فهو سبحانه لا يحاط به رؤية كما لا يحاط به علماً، ولا يلزم من نفي إحاطة العلم والرؤية نفي الرؤية، بل يكون ذلك دليلاً على أنه يرى ولا يحاط به، فإن تخصيص الإحاطة يقتضي أن مطلق الرؤية ليس بمنفي. وهذا الجواب قول أكثر العلماء من السلف وغيرهم، وقد روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره؛ فلا تحتاج الآية إلى تخصيص، ولا خروج عن ظاهر الآية؛ فلا نحتاج أن نقول: لا نراه في الدنيا، أو نقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ بل المبصرون، أو لا تدركه كلها بل بعضها، ونحو ذلك من الأقوال التي فيها تكلف) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (إن هذا الرجل قد اعترف هو ومن يوافقه أن الرؤية التي دل عليها الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة؛ بل الإدراك المنفي عن الله في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يدل على أن الله تعالى في الجهة، وذلك يقتضي دلالة الكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة على شيئين: على رؤية الله تعالى، وعلى أنه في الجهة. وذكر اعتراف فضلاء المعتزلة بأن النبيين كانوا يعتقدون ذلك.

أما «الأول» فإنه لما ذكر الحجج السمعية التي للمعتزلة على نفي الرؤية قال: وهذه الشبه أربع: «الأولى» وهي الأقوى التمسك بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾. قال: واعلم أن هذه الآية تارة يتمسكون بها على أنه تعالى لا يرى بالأبصار في الدنيا ولا في الآخرة. وتارة على استحالة كوننا رائين له. أما الوجه «الأول» فإنما يتم بإثبات أمور أربعة: «أحدها» أن إدراك البصر هو الرؤية. قال: ويدل عليه أمران: «أحدهما»: أنه لا فرق في اللغة بين أن يقال رأيت فلاناً ببصري وبين أن يقال: أدركته ببصري. كما لا فرق بين أن يقال: أدركته بأذني. وبين أن يقال: سمعته بأذني. «ثانيهما» أن أهل اللسان فهموا من هذه الآية نفي الرؤية، وذلك يدل على أن

(١) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٥٥٣ ـ ٥٥٥).

العرب يستعملون إدراك البصر بمعنى الرؤية. وروي عن عائشة لما بلغها أن كعباً قال: إن محمداً رأى ربه، أنكرت ذلك، وقالت: ثلاث من حدثك بهن فقد كذب: من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله، قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ قال: روي عن ابن عباس مثل ذلك.

ثم قال في الجواب عن هذا: لا نسلم أن إدراك البصر عبارة عن نفس الرؤية. بيانه هو أن الإدراك غير موضوع لحقيقة الرؤية أصلاً؛ لكنه مستعمل في رؤية الشيء المحدود بطريق المجاز[١] ومتى كان كذلك لم يلزم من الآية هاهنا نفي الرؤية. وإنما قلنا إن الإدراك غير موضوع للرؤية حقيقة، لأن لفظ الإدراك حقيقة في غير الرؤية فوجب أن لا يكون حقيقة في الرؤية، إنما قلنا إن الإدراك غير حقيقة في الرؤية لأنها حقيقة في اللحوق والبلوغ سواء كان في المكان كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١] أو في الزمان كما يقال: أدرك قتادة الحسن، أو في صفة وحالة كما يقال: أدرك الكلام، وأدركت الثمرة إذا نضجت. وأيضاً فإنه يقال: أدركت ببصري حرارة الليل وإن كانت الحرارة لا ترى. فعلمنا أن الإدراك حقيقة في غير الرؤية، فوجب أن لا يكون حقيقة في الرؤية لئلا يؤدي إلى الاشتراك الذي هو خلاف الأصل) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وهو كما وصف نفسه: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ بحد ولا غاية ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (ولهذا فسروا «الإدراك» بالرؤية في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ كما فسرتها المعتزلة. لكن عند المعتزلة هذا خرج مخرج المدح فلا يرى بحال، وهؤلاء قالوا: لا يرى في الدنيا دون الآخرة.

والآية تنفي الإدراك مطلقاً دون الرؤية كما قال ابن كلاب، وهذا أصح. وحينئذٍ فتكون الآية دالة على إثبات الرؤية، وهو أنه يرى ولا يدرك، فيرى من غير أحاطة ولا حصر. وبهذا يحصل المدح، فإنه وصف لعظمته أنه لا تدركه أبصار العباد وإن رأته، وهو يدرك أبصارهم. قال ابن عباس. وعكرمة بحضرته، لمن عارض بهذه الآية: «ألست ترى السماء»؟ قال: «بلى» قال: «أفكلها ترى»؟) ا.هـ[٤].

---

(١) بياض في الأصل.
(٢) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥).
(٣) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ٣٠).
(٤) مجموع الفتاوى (١٦/ ٨٧ ـ ٨٨).

وقال رحمه الله: (قال أبو عبد الله أنه على العرش بلا حد يحده أحد أو صفة يبلغها واصف، وأتبع ذلك بقوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ بحد ولا غاية، وهذا التفسير الصحيح للإدراك؛ أي لا تحيط الأبصار بحده ولا غايته؛ ثم قال: ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ وهو عالم الغيب والشهادة علام الغيوب؛ ليتبين أنه عالم بنفسه وبكل شيء) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (فإذا قيل ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي لا تحيط به، دل على أنه يوصف بنفي الإحاطة به مع إثبات الرؤية، وهذا ممتنع على قول هؤلاء فإن هذا إنما يكون بزعمهم فيما ينقسم، فيرى بعضه من بعض. فتكون هناك رؤية بلا إدراك وإحاطة، وعندهم لا يتصور أن يرى إلا رؤية واحدة متماثلة، كما يقولونه في كلامه: إنه شيء واحد لا يتبعض ولا يتعدد. وفي الإيمان به: إنه شيء واحد لا يقبل الزيادة والنقصان.

وأما الإدراك والإحاطة الزائد على مطلق الرؤية فليس انتفاؤه لعظمة الرب عندهم، بل لأن ذاته لا تقبل ذاك كما قالت المعتزلة: إنها لا تقبل الرؤية.

وأيضاً فهم والمعتزلة لا يريدون أن يجعلوا للأبصار إدراكاً غير الرؤية. سواء أثبتت الرؤية أو نفيت. فإن هذا يبطل قول المعتزلة بنفي الرؤية، ويبطل قول هؤلاء بإثبات رؤية بلا معاينة ومواجهة) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (كذلك قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾: نفي الإدراك الذي هو الإحاطة، وذلك يقتضي كمال عظمته، وأنه بحيث لا تدركه الأبصار، فهو يدل على أنه إذا رئي لا تدركه الأبصار، وهو يقتضي إمكان رؤيته، ونفي إدراك الأبصار إياه لا نفي رؤيته، فهو دليل على إثبات الرؤية، ونفي إحاطة الأبصار به، وهذا يناقض قول النفاة. وأما مجرد نفي الرؤية، فليست صفة مدح، فإن المعدوم لا يُرى، ولهذا نظائر في القرآن) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وقد كنت قديماً ذكرت في بعض كلامي أني تدبرت عامة ما يحتج به النفاة من النصوص، فوجدتها على نقيض قولهم أدل منها على قولهم، كاحتجاجهم على نفي الرؤية بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾

---

(١) بيان تلبيس الجهمية (٢/ ١٦٤).
(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٨٨ ـ ٨٩).
(٣) الصفدية (٢/ ٦٦).

فبينت أن الإدراك هو الإحاطة لا الرؤية، وأن هذه الآية تدل على إثبات الرؤية أعظم من دلاتها على نفيها) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وأما احتجاجه «واحتجاج النفاة أيضاً» بقوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فالآية حجة عليهم لا لهم، لأن الإدراك: إما أن يراد به مطلق الرؤية، أو الرؤية المقيدة بالإحاطة، والأول باطل، لأنه ليس كل من رأى شيئاً يقال إنه «أدركه، كما لا يقال أحاط به»، كما سئل ابن عباس ﷺ عن ذلك فقال: ألست ترى السماء؟ قال: بلى، قال: أكلها ترى؟ قال: لا.

ومن رأى جوانب الجيش أو الجبل أو البستان أو المدينة لا يقال إنه أدركها، وإنما يقال أدركها إذا أحاط بها رؤية، ونحن في هذا المقام ليس علينا بيان ذلك، وإنما ذكرنا هذا بيانا لسند المنع، بل المستدل بالآية عليه أن يبين أن الإدراك في لغة العرب مرادف للرؤية، وأن كل من رأى شيئاً يقال في لغتهم إنه أدركه وهذا لا سبيل إليه، كيف وبين لفظ الرؤية ولفظ الإدراك عموم وخصوص «أو اشتراك لفظي»، فقد تقع رؤية بلا إدراك، «وقد يقع إدراك بلا رؤية»، فإن الإدراك يستعمل في إدراك العلم وإدراك القدرة، فقد يدرك الشيء بالقدرة وإن لم يُشاهد، كالأعمى الذي طلب رجلاً هارباً منه فأدركه، ولم يره، وقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء] فنفى موسى الإدراك مع إثبات الترائي، فعُلم أنه قد يكون رؤية بلا إدراك، والإدراك هنا هو إدراك القدرة، أي ملحوقون مُحاطاً بنا، وإذا انتفى هذا الإدراك فقد تنتفي إحاطة البصر [أيضاً].

ومما يبين ذلك أن الله تعالى ذكر هذه الآية يمدح بها نفسه ﷻ، ومعلوم أن كون الشيء لا يُرى ليس صفة مدح؛ لأن النفي المحض لا يكون مدحاً إن لم يتضمن أمراً ثبوتياً، ولأن المعدوم أيضاً لا يرى، والمعدوم لا يمدح، فعلم أن مجرد نفي الرؤية لا مدح فيه.

[وهذا أصل مستمر، وهو أن العدم المحض الذي لا يتضمن ثبوتاً لا مدح فيه ولا كمال، فلا يمدح الرب نفسه به، بل ولا يصف نفسه به، وإنما يصفها بالنفي المتضمن معنى ثبوت، كقوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا

(١) درء تعارض العقل (١/ ٣٧٤).

بِإِذْنِهِۦ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾، وقوله: ﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣]، وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق: ٣٨].

ونحو ذلك من القضايا السلبية التي يصف الرب تعالى بها نفسه، وأنها تتضمن اتصافه بصفات الكمال الثبوتية مثل كمال حياته وقيوميته وملكه وقدرته وعلمه وعدايته وانفراده بالربوبية والإلهية ونحو ذلك. وكل ما يوصف به العدم المحض فلا يكون إلا عدماً محضاً، ومعلوم أن العدم المحض يقال فيه: إنه لا يُرى، فعلم أن نفي الرؤية عدم محض، ولا يقال في العدم المحض: لا يدرك، وإنما يقال هذا فيما لا يدرك لعظمته لا لعدمه].

[وإذا كان المنفي هو الإدراك، فهو ﷻ لا يحاط به رؤية، كما لا يحاط به علماً، ولا يلزم من نفي إحاطة العلم والرؤية نفي العلم والرؤية، بل يكون ذلك دليلاً على أنه يُرى ولا يحاط به كما يعلم ولا يحاط به، فإن تخصيص الإحاطة بالنفي يقتضي أن مطلق الرؤية ليس بمنفي، وهذا الجواب قول أكثر العلماء من السلف وغيرهم، وقد روي معناه عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره] وقد روي في ذلك حديث مرفوع إلى النبي ﷺ. ولا تحتاج الآية إلى تخصيص ولا خروج عن ظاهر الآية، فلا نحتاج أن نقول: لا نراه في الدنيا، أو نقول: لا تدركه الأبصار بل المبصرون، أو لا تدركه كلها بل بعضها، ونحو ذلك من الأقوال التي فيها تكلف.

ثم نحن في هذا المقام يكفينا أن نقول: الآية تحتمل ذلك، فلا يكون فيها دلالة على نفي الرؤية، فبطل استدلال من استدل بها على الرؤية، وإذا أردنا أن نثبت دلالة الآية على الرؤية مع نفيها للإدراك الذي هو الإحاطة أقمنا الدلالة على أن الإدراك في اللغة ليس هو مرادفاً للرؤية، بل هو أخص منها، وأثبتنا ذلك باللغة وأقوال المفسرين من السلف وبأدلة أخرى سمعية وعقلية) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ إنما نفى الإدراك الذي هو الإحاطة، كما قاله أكثر العلماء، ولم ينف مجرد الرؤية؛ لأن المعدوم لا يرى، وليس في كونه لا يرى مدح؛ إذ لو كان كذلك لكان المعدوم ممدوحاً، وإنما المدح في

(١) منهاج السنة النبوية (٢/ ٣١٧ ـ ٣٢١).

كونه لا يحاط به وإن رؤي؛ كما أنه لا يحاط به وإن علم، فكما أنه إذا علم لا يحاط به علماً: فكذلك إذا رؤي لا يحاط به رؤية) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فمعناه على قول الجمهور: لا تحيط به، ليس معناه لا تراه، فإن نفي الرؤية يشاركه فيه المعدوم، فليس هو صفة مدح، بخلاف كونه لا يحاط به ولا يدرك، فإن هذا يقتضي أنه من عظمته لا تدركه الأبصار، وذلك يقتضي كمالاً عظيماً تعجز معه الأبصار عن الإحاطة، فالآية دالة على إثبات رؤيته ونفي الإحاطة به، نقيض ما تظنه الجهمية من أنها دالة على نفي رؤيته) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ يقتضي عظمته، بحيث لا تحيط به الأبصار) ا.هـ[٣].

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾﴾.

(وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية] ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ﴾ [المائدة: ١٣] ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟﴾ [التغابن: ١٤] ﴿فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٠٩] ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] ونحو هذا في القرآن مما أمر الله به المؤمنين بالعفو والصفح عن المشركين فإنه نسخ ذلك كله قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥] وقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] فنسخ هذا عفوه عن المشركين) ا.هـ[٤].

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

(قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم

---

(١) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٦).
(٢) الصفدية (١/ ٩١).
(٣) درء تعارض العقل والنقل (٦/ ١٧٧).
(٤) الصارم المسلول (٢٢٦).

مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ أي وما يشعركم أن الآيات إذا جاءت لا يؤمنون، وأنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة. فقوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وكلاهما داخل في معنى قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ وبهذا تزول شبهة شبهة من لم يفهم الآية؛ فظن أن «أن» بمعنى «لعل» لتوهمه أن قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ﴾ فعل مبتدأ، إلى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

ومن تدبر هؤلاء الآيات علم أنها منطبقة على من يعارض كلام الأنبياء بكلام غيرهم بحسب حاله، فإن هؤلاء هم أعداء ما جاءت به الأنبياء.

وأصل العداوة البغض، كما أن أصل الولاية [الحب]. ومن المعلوم أنك لا تجد أحداً ممن يرد نصوص الكتاب والسنة بقوله إلا وهو يبغض ما خالف قوله، ويود أن تلك الآية لم تكن نزلت، وأن ذلك الحديث لم يرد، ولو أمكنه كشط ذلك من المصحف لفعله.

قال بعض السلف: ما ابتدع أحد بدعة إلا خرجت حلاوة الحديث من قلبه.

وقيل عن بعض رؤوس الجهمية ـ إما بشر المريسي، أو غيره ـ: أنه قال: ليس شيء أنقض لقولنا من القرآن، فأقروا به في الظاهر، ثم صرفوه بالتأويل. ويقال إنه قال: إذا احتجوا عليكم بالحديث فغالطوهم بالتكذيب. وإذا احتجوا بالآيات فغالطوهم بالتأويل.

ولهذا تجد الواحد من هؤلاء لا يحب تبليغ النصوص النبوية. بل قد يختار كتمان ذلك والنهي عن إشاعته وتبليغه. خلافاً لما أمر الله به ورسوله من التبليغ عنه.

كما قال: ليبلغ الشاهدُ الغائب.

وقال: بلغوا عني ولو آية.

وقال: نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه.

وقد ذم الله في كتابه الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى، وهؤلاء يختارون كتمان ما أنزله الله، لأنه معارض لما يقولونه، وفيهم جاء الأثر المعروف عن عمر: قال: إياكم وأصحاب الرأي، فإنهم أعداء السنن، أعيتهم السنن أن يحفظوها، وتفلتت منهم أن يعوها، وسئلوا فقالوا في الدين برأيهم، فذكر أنهم أعداء السنن.

وبالجملة، فكل من أبغض شيئاً من الكتاب والسنة ففيه من عداوة النبي بحسب ذلك، وكذلك من أحب ذلك ففيه من الولاية بحسب ذلك.

قال عبد الله بن مسعود: لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن، فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله، وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله.

وعدو الأنبياء هم شياطين الإنس والجن.

كما قال النبي ﷺ لأبي ذر: تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن. فقال: أو للإنس شياطين؟ فقال: نعم شر من شياطين الجن، وهؤلاء يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً.

والزخرف هو الكلام المزين، كما يزين الشيء بالزخرف، وهو المذهب، وذلك غرور لأنه يغر المستمع، والشبهات المعارضة لما جاءت به الرسل هي كلام مزخرف يغر المستمع.

ولتصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة، فهؤلاء المعارضون لما جاءت به الرسل تصغي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة، كما رأيناه وجربناه.

ثم قال: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ وهذا يبين أن الحكم بين الناس هو الله تعالى بما أنزله من الكتاب المفضل.

كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ جملة في موضع الحال، وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا﴾ استفهام إنكار، يقول: كيف أطلب حكماً غير الله، وقد أنزل كتاباً مفصلاً يحكم بيننا؟

وقوله: ﴿مُفَصَّلًا﴾ يبين أن الكتاب الحاكم مفصل مبين، بخلاف ما يزعمه من يعارضه بآراء الرجال، ويقول: إنه لا يفهم معناه، ولا يدل على مورد النزاع، فيجعله: إما مجملاً لا ظاهر له، أو مؤولاً لا يعلم عين معناه، ولا دليل يدل على عين المعنى المراد به.

ولهذا كان المعرضون عن النصوص، المعارضون لها، كالمتفقين على أنه لا يعلم عين المراد [به]، وإنما غايتهم أن يذكروا احتمالات كثيرة، ويقولون: يجوز أن يكون المراد واحداً منها. ولهذا أمسك من أمسك منهم عن التأويل، لعدم العلم بعين المراد.

فعلى التقديرين لا يكون عندهم الكتاب الحاكم مفصلاً، بل مجملاً ملتبساً أو مؤولاً بتأويل لا دليل على إرادته.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾، وذلك أن الكتاب الأول مصدق للقرآن، فمن نظر فيما بأيدي أهل الكتاب من التوراة والإنجيل، علم علماً يقيناً لا يحتمل النقيض أن هذا وهذا جاءا من مشكاة واحدة، لا سيما في باب التوحيد والأسماء والصفات، فإن التوراة مطابقة للقرآن موافقة له موافقة لا ريب فيها.

وهذا مما يبين أن ما في التوراة من ذلك، ليس هو من المبدل الذي أنكره عليهم القرآن، بل هو من الحق الذي صدقهم عليه. ولهذا لم يكن النبي ﷺ وأصحابه ينكرون ما في التوراة من الصفات، ولا يجعلون ذلك مما بدله اليهود، ولا يعيبونهم بذلك ويقولون هذا تشبيه وتجسيم، كما يعيبهم بذلك كثير من النفاة، ويقولون: إن هذا مما حرفوه، بل كان الرسول إذا ذكروا له شيئاً من ذلك صدقهم عليه، كما صدقهم في خبر الحبر، كما هو في الصحيحين عن عبد الله بن مسعود، وفي غير ذلك.

ثم قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾، فقرر أن ما أخبر الله به فهو صدق، وما أمر به فهو عدل. وهذا يقرر أن ما في النصوص من الخبر فهو صدق علينا أن نصدق به، لا نعرض عنه ولا نعارضه. ومن دفعه فإنه لم يصدق به، وإن قال: أنا أصدق الرسول تصديقاً مجملاً، فإن نفس الخبر الذي أخبر به الرسول، وعارضه هو بعقله ودفعه، لم يصدق به تصديقاً مفصلاً، ولو صدق الرجل الرسول تصديقاً مجملاً، ولم يصدقه تصديقاً مفصلاً، فيما علم أنه أخبر به، لم يكن مؤمناً له، ولو أقر بلفظه مع إعراضه. عن معناه الذي بينه الرسول، أو صرفه إلى معانٍ لا يدل عليها مجرى الخطاب بفنون التحريف، بل لم يردها الرسول، فهذا ليس بتصديق في الحقيقة، بل هو إلى التكذيب أقرب) ا.هـ[1].

(١) درء تعارض العقل (٥/ ٢١٦ ـ ٢٢٣).

وقال رحمه الله: (والسب المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

قد قيل: إن المسلمين كانوا إذا سبوا آلهة الكفار سب الكفار من يأمرهم بذلك، وإلههم الذي يعبدونه معرضين عن كونه ربهم وإلههم؛ فيقع سبهم على الله لأنه إلهنا ومعبودنا، فيكونوا سابين لموصوفٍ، وهو الله سبحانه ولهذا قال سبحانه: ﴿عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وهو شبيه بسب الدهر من بعض الوجوه.

وقيل: كانوا يصرحون بسب الله عدواً وغلواً في الكفر، قال قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار فيسب الكفار الله بغير علم؛ فأنزل الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وقال أيضاً: كان المسلمون يسبون أوثان الكفار، فيردون ذلك عليهم، فنهاهم الله تعالى أن يستسبوا لربهم قوماً جهلةً لا علم لهم بالله) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (فمعلوم أن المشركين قد يحبون آلهتهم كما يحبون الله أو تزيد محبتهم لهم على محبتهم لله؛ ولهذا: يشتمون الله إذا شتمت آلهتهم. كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حرم سب الآلهة مع أنه عبادة لكونه ذريعة إلى سبهم لله ﷻ لأن مصلحة تركهم سب الله سبحانه راجحة على مصلحة سبنا لآلهتهم) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (ومما يبين أن السب قدر زائد على الكفر قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾، ومن المعلوم أنهم كانوا مشركين مكذبين معادين لرسوله، ثم نهي المسلمون أن يفعلوا ما يكون ذريعة إلى سبهم لله؛ فعلم أن سب الله أعظم عنده من أن يشرك به ويكذب رسوله ويعادى، فلا بد له من عقوبة تختصه لما انتهكه من حرمة الله كسائر الحرمات التي تنتهكها بالفعل وأولى، فلا يجوز أن يعاقب على ذلك بدون القتل؛ لأن ذلك أعظم الجرائم؛ فلا يقابل إلا بأبلغ العقوبات) ا.هـ[4].

---

(١) الصارم المسلول (٢٢٦).
(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٣٢ - ٦٣٣).
(٣) فتاوى (٣/ ١٤٠).
(٤) الصارم المسلول (٥٥٢).

وقال رحمه الله: (السب الذي ذكرنا حكمه من المسلم هو: الكلام الذي يقصد به الانتقاص، والاستخفاف، وهو ما يفهم منه السب في عقول الناس على اختلاف اعتقاداتهم، كاللعن، والتقبيح، ونحوه، وهو الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾، فهؤلاء لما سبت آلهتهم سبوا الله مقابلة، فجعلوهم مماثلين لله وأعظم في قلوبهم كما تجد كثيراً من المشركين يحب ما اتخذه من دون الله أنداداً أكثر مما يحب الله تعالى) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فلولا تعظيمهم لآلهتهم على الله لما سبوا الله إذا سبت آلهتهم) ا.هـ[3].

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ﴾ و﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ﴾ [النحل: ٣٨]، ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ﴾ [النور: ٥٣].

قال أهل اللغة ـ وهذا لفظ الجوهري ـ: اليمين القسم. والجمع أيمن وأيمان، فقال: سمي بذلك كانوا إذا تحالفوا يمسك كل امرئ منهم على يمين صاحبه) ا.هـ[4].

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

(بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ أي فتكون هذه الأمور الثلاثة أن لا يؤمنوا وإن ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ أي وما يدريكم أن الآيات إذا جاءت تحصل هذه الأمور الثلاثة وبهذا المعنى تبين أن قراءة الفتح أحسن وأن من قال أن

---

(١) الصارم المسلول (٥٦٣).
(٢) منهاج السنة (٥/ ٣٩٥).
(٣) منهاج السنة (٥/ ٣٩٧).
(٤) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٣٦).

المفتوحة بمعنى لعل فظن أن قوله ونقلب أفئدتهم كلام مبتدأ لم يفهم معنى الآية وإذا جعل ونقلب أفئدتهم داخلاً في خبر أن تبين معنى الآية فإن كثيراً من الناس يؤمنون ولا تقلب قلوبهم لكن قد يحصل تقليب أفئدتهم وأبصارهم وقد لا يحصل أي فما يدريكم أنهم لا يؤمنون والمراد وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بل نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لا يؤمنوا به أول مرة والمعنى وما يدريكم أن الأمر بخلاف ما تظنونه من إيمانهم عند مجيء الآيات ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ فيعاقبون على ترك الإيمان أول مرة بعد وجوبه عليهم إما لكونهم عرفوا الحق وما أقروا به أو تمكنوا من معرفته فلم يطلبوا معرفته ومثل هذا كثيراً) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ وهذا استفهام نفي وإنكار: أي وما يدريكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون، وأنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة على قراءة من قرأ ﴿إِنَّهَا﴾ بالكسر تكون جزماً بأنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة؛ ولهذا قال من قال من السلف كسعيد بن جبير: إن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها وإن من عقوبة السيئة السيئة بعدها) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ أي وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾ أي يتركون الإيمان، ونحن نقلب أفئدتهم لكونهم لم يؤمنوا أول مرة، أي ما يدريكم أنه لا يكون هذا وهذا حينئذٍ.

ومن فهم معنى الآية عرف خطأ من قال (أن) بمعنى لعل، واستشكل قراءة الفتح؛ بل يعلم حينئذٍ أنها أحسن من قراءة الكسر، وهذا باب واسع) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (بسم الله الرحمٰن الرحيم، وبه نستعين، [فصل]: [لشيخ الإسلام] [ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ] في تفسير آيات أشكلت [على كثير من

---

(١) الفتاوى (أصفهانية) (٥/ ١٢٣ ـ ١٢٤).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٠ ـ ١١).
(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٤٥ ـ ٢٤٦).

العلماء] حتى لا يوجد في طائفة من كتب التفسير فيها القول الصواب، بل لا يوجد فيها إلا ما هو خطأ:

منها قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

وفي ﴿أَنَّهَآ﴾ قراءتان، فقراءة النصب أحسن القراءتين، وهي التي أشكلت على كثير من أهل العربية، حتى قالوا إن «أنَّ» بمعنى [لعلّ]، وذكروا [ما يشهد] لذلك، وإنما دخل عليهم الغلط؛ لأنهم ظنوا أن قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ﴾ جملة مبتدأة يخبر الله بها، وليس كذلك؛ ولكنها داخلة في خبر «أنَّ» ومتعلقة بـ«إذا»، والمعنى: وما يشعركم إذا جاءت أنهم لا يؤمنون، وأنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم بعد مجيئها [كما] لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم.

فإذا كنتم لا تشعرون أنها إذا جاءت كانوا لا يؤمنون، وكنا نفعل بهم؛ لم يكن قسمهم «لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها» صدقاً، بل قد يكون كذباً، فهذا معنى الآية، وهو ظاهر الكلام المعروف.

و«أنّ» هي «أن» المعروفة المصدرية. ولو كان قوله: «ونقلب» كلاماً مبتدءاً للزم أن كل من جاءته آية قلب الله فؤاده وبصره، وليس كذلك؛ بل قد يؤمن كثير منهم، وكثير من الناس كفر ثم جاءته آيات فتاب الله عليه فآمن، وإنما العقوبة لمن أصر، ولكن لا يجزم بإيمانه عند مجيء الآيات، بل قد يؤمن وقد لا يؤمن.

وحرف «لا» وإن كان قد يكون مؤكداً للنفي؛ إذ من شأنه أن يقحم في الجمل السلبية لفظاً أو معناً مؤكداً، للسلب كقوله: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الحديد: ٢٩]، وقوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنبياء]، وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥].

وقول الصدّيق: «لا ها الله [إذا]»[1]، وقوله: ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿١﴾﴾ [القيامة] وقولهم: «لا والله لا يكون ذا».

وقد ظن بعضهم أنه هنا تفخيم، [وليس] كذلك، بل هو باق على بابه، والمعنى: وما يشعركم أنهم يؤمنون. ولهذا يجعلون قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ﴾ معطوفاً على ذلك، وليس هو

(١) البخاري (٤/ ٥٧)، ومسلم (٢/ ١٣٧٠).

في هذه الآية كذلك. بل هو باق [على بابه، والمعنى: وما يدريكم] أنها إذا جاءت لا يؤمنون، ليس [المعنى]: ما يشعركم أنها إذا جاءت يؤمنون، فإنها جاءت في جواب «إذا»، و«إذا» فيها معنى الشرط.

وأنت تقول: ما يشعرك أن زيداً يفعل كذا، وتقول: ما يشعرك أنك إن أحسنت إليه يحسن إليك. وإذا قيل: فقوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾؟ استفهام بمعنى الإنكار، والتقدير: ولا تشعرون بهذا النفي، وهم لا يدعون الشعور بالنفي ولا ادّعوا الشعور بالإثبات، ولكن أولئك أقسموا عليه، فقال تعالى: وأنتم لا شعور لكم بهذا النفي، بل قد يكون النفي حقاً وأنتم لا تشعرون به.

فقد يكون [إذا جاءتهم آية لا يؤمنون، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم وأنتم لا تشعرون] بهذا، فأي شيء هو الذي أشعركم به؟ وإذا لم يكونوا شاعرين به لم يحكموا به مع تحققه في نفس الأمر؛ فلهذا [قد] يظنون صدقهم في قسمهم، ويطلبون مجيء الآية، كما يقال: فلان قال كذا، وأنت لا تعلم أن هذا الكلام أراد به كذا وكذا فتنفي علمه بالواقع بينها، أو تقول: وما يدريك أنه أراد به كذا وكذا؟ لما يجوز أنه أراده.

كذلك إذا قلت: وما يشعرون بعدم الإيمان، فيجوز أن لا يكون عدم الإيمان؛ فلا يجزمون بانتفائه. والله أعلم.

ومنها: قوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، والصواب فيها أن قوله: ﴿وَعَبَدَ﴾ معطوف على قوله: ﴿لَعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ﴾ [المائدة: ٦٠]، [فهو] فعل ماض معطوف على ما قبله من الأفعال الماضية.

[أي من لعنه الله، ومن غضب عليه، ومن جعل منهم القردة والخنازير، ومن عبد الطاغوت]...

لكن [الأفعال] المتقدمة، الفاعل [فيها اسم] الله [تعالى] مظهراً ومضمراً، وهنا الفاعل اسم «من عبد الطاغوت» وهو الضمير في «عبد»، ولم يعد [سبحانه] حرف «من»؛ لأن هذه الأفعال [كلها صفة] لصنف واحد وهم اليهود.

ومنها: قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس]، ظن طائفة أن «ما» نافية، وقالوا: ما يدعون من دون الله شركاء في الحقيقة، بل هم غير شركاء.

وهذا خطأ، ولكن «ما» هنا حرف استفهام. والمعنى: وأي شيء يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء؟ ما يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون.

و«شركاء» مفعول «يدعون»، لا مفعول «يتبع».

فإن المشركين يدعون من دون الله شركاء كما [قد] أخبر [الله] عنهم بذلك في غير موضع. فالشركاء موصوفون في القرآن بأنهم يدعون من دون الله، ولم يوصفوا بأنهم يتبعون، وإنما يتبع الأئمة الذين كانوا يدعون هذه الآلهة.

ولهذا [قال] بعد هذا: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ولو أراد أنهم ما اتبعوا شركاء في الحقيقة لقال: «إن يتبعون إلا من ليسوا شركاء»، بل هو استفهام بيّن به أن المشركين الذين دعوا من دون الله شركاء؛ ما اتبعوا إلا الظن، ما اتبعوا علماً.

فإن المشرك لا يكون معه علم يطابق [شركه. إذ العلم لا يكون إلا مطابقاً للمعلوم والمشرك اعتقاده للشرك اعتقاداً غير مطابق]. وهو فيه ما يتبع إلا الظن، وهو يخرص يحرز حرزاً، وهو كذب وافتراء كقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الذاريات].

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾.

(ومما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ هذا من تمام قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فذكر أن هذا التقليب يكون لمن لم يؤمنوا به أول مرة، وهذا عدم الإيمان؛ لكن يقال: هذا بعد دعاء الرسول ﷺ لهم، وقد كذبوا وتركوا الإيمان، وهذه أمور وجودية؛ لكن الموجب هو عدم الإيمان، وما ذكر شرط في التعذيب، كإرسال الرسول، فإنه قد يشتغل عن الإيمان بما جنسه مباح لا يستحق به العقوبة إلا لأنه شغله عن الإيمان، ومن الناس من يقول ضد الإيمان هو تركه، وهو أمر وجودي لا ضد له إلا ذلك) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وليس من الأعضاء أشد ارتباطاً بالقلب من العينين؛ ولهذا جمع بينهما في قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ ﴿تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [النور: ٣٧] ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠] ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾﴾ [النازعات] ولأن كليهما له النظر؛ فنظر القلب الظاهر بالعينين والباطن به وحده، وكذلك اللسان هو الذكر والشفتان أنثاه) ا.هـ[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٢٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٢٥).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي يحارون) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (ومما ذكر فيه العقوبة على عدم الإيمان: قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ وهذا من تمام قوله: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ﴾ الآية فذكر: أن هذا التقليب إنما حصل لقلوبهم لما لم يؤمنوا به أول مرة، وهذا عدم الإيمان.

لكن يقال: إنما كان هذا بعد دعوة الرسول لهم، وهم قد تركوا الإيمان، وكذبوا الرسول. وهذه أمور وجودية، لكن الموجب للعذاب: هو عدم الإيمان. وما ذكر شرط في التعذيب، بمنزلة إرسال الرسول. فإنه قد يشتغل عن الإيمان بما جنسه مباح ـ من أكل وشرب. وبيع وسفر، وغير ذلك ـ وهذا الجنس لا يستحق عليه العقوبة إلا لأنه شغله عن الإيمان الواجب عليه) ا.هـ[2].

﴿۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾.

(وأما إذا أطلق سبحانه الكفار فهو مثل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ الآية. فبين أنهم قد يؤمنوا إذا شاء) ا.هـ[3].

﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

(قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾، فأخبر أن جميع الأنبياء لهم أعداء، وهم شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض القول المزخرف، وهو: المزين المحسن يغرون به، والغرور: التلبيس والتمويه، وهذا شأن كل كلام وكل عمل يخالف ما جاءت به الرسل من أمر المتكلمة وغيرهم من الأولين والآخرين، ثم قال: ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ فعلم أن مخالفة الرسل وترك الإيمان بالآخرة متلازمان، فمن لم

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٢٠٢).
(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ٣٣٨).
(٣) مجموع الفتاوى (١٦/ ٥٨٦).

يؤمن بالأخرى أصغى إلى زخرف أعدائهم مخالف الرسل، كما هو موجود في أصناف الكفار والمنافقين في هذه الأمة وغيرها) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (و«الوحي» وحيان: وحي من الرحمن، ووحي من الشيطان، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ وقال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾ [الشعراء] وقد كان المختار بن أبي عبيد من هذا الضرب، حتى قيل لابن عمر[٢] أو ابن عباس قيل لأحدهما: أنه يقول أنه يوحى إليه، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام] وقيل للآخر: أنه يقول أنه ينزل عليه، فقال: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾﴾) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وقال: وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً وقال النبي ﷺ لأبي ذر: «يا أبا ذر! تعوذ بالله من شياطين الإنس والجن». قال: «يا رسول الله! أو للإنس شياطين»؟ قال: «نعم، شر من شياطين الجن[٤]. قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة]. وهم شياطينهم من الإنس كما قال ذلك عامة السلف وكما يدل عليه سياق القرآن، فإن شياطين الجن لم يكونوا يحتاجون إلى أن يخلوا بهم، ولا هم يقولون لهم: «إنا معكم، إنما نحن مستهزؤون») ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (ولفظ النبي كلفظ الرسول هو في الأصل إنما قيل مضافاً إلى الله فيقال رسول الله ثم عرف باللام فكانت اللام تعاقب الإضافة كقوله: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [المزمل] وقوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا﴾ [النور: ٦٣]

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ٥٦) (٩/ ٣٢ ـ ٣٣).

(٢) الأرجح أنه ابن عمر لأن أخت المختار صفية كانت تحت ابن عمر، وقد ذكر ذلك ابن كثير في تفسيره (٢/ ١٦٧).

(٣) مجموع الفتاوى (١٣/ ٧٤ ـ ٧٥).

(٤) رواه أحمد (٥/ ٢٦٥)، والطبراني في الكبير (٧٨٧١)، والطبري في تفسيره (١٣٧٦٨، ١٣٧٦٩) والحديث كما قال الهيثمي مداره على ابن يزيد وفيه كلام كما قال صاحب المجمع (٣/ ١١٥) وصححه ابن كثير (٢/ ١٦٦) بعد أن جلب رواية ابن أبي حاتم.

(٥) الرد على المنطقيين (٥٠٧).

وكذلك اسم النبي يقال نبي الله كما قال: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١] وقيل لهم: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣] فتقولون: يا محمد بل قولوا يا نبي الله يا رسول الله ورسول فعول بمعنى مفعول أي مرسل فرسول الله الذي أرسله الله فكذلك نبي الله هو بمعنى مفعول أي منبأ الله الذي نبأه الله وهذا أجود من أن يقال أنه بمعنى فاعل أي منبئ فإنه إذا نبأه الله فهو نبي الله سواء أنبأ بذلك غيره أو لم ينبئه فالذي صار به النبي نبياً أن ينبئه الله وهذا مما يبين ما امتاز به عن غيره فإنه إذا كان الذي ينبئه إليه كما أن الرسول هو الذي يرسله الله فما نبأ الله حق وصدق ليس فيه كذب لا خطأ ولا عمداً وما يوحيه الشيطان هو من إيحائه ليس من إنباء الله فالذي اصطفاه الله لأنبيائه وجعله نبياً له كالذي اصطفاه لرسالته وجعله رسولاً له فكما أن رسول الله لا يكون رسولاً لغيره فلا يقبل أمر غير الله فكذلك نبي الله لا يكون نبياً لغير الله فلا يقبل إنباء أحد إلا إنباء الله وإذا أخبر بما أنبأ الله وجب الإيمان به فإنه صادق مصدوق ليس في شيء مما أنباه الله به شيء من وحي الشيطان وهذا بخلاف غير النبي فإنه وإن كان قد يلهم ويحدث ويوحى إليه أشياء من الله ويكون حقاً فقد يلقي إليه الشيطان أشياء ويشتبه هذا بهذا فإنه ليس نبياً لله كما أن الذي يأمر بطاعة الله غير الرسول وإن كان أكثر ما يأمر به هو طاعة الله فقد يغلط ويأمر بغير طاعة الله بخلاف الرسول المبلغ عن الله فإنه لا يأمر إلا بطاعة الله قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] فنبي الله هو الذي ينبئه الله لا غيره ولهذا أوجب الله الإيمان بما أوتيه النبيون فقال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وليس كل من أوحي إليه الوحي العام يكون نبياً فإنه قد يوحى إلى غير الناس قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل] وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢] وقال تعالى عن يوسف وهو صغير ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ

لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف] وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ [المائدة: ١١١]) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يونس]؛ أخبر ﷻ: أن ما جاءت به الرسل والأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ لا بد له من عدو شياطين الإنس والجن يوسوسون القول المزخرف، ونهى أن يطلب حكماً من غير الله بقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾؟، والكتاب: هو الحاكم بين الناس شرعاً وديناً، وينصر القائم نصراً وقدراً) ا.هـ[٢].

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

(قال في الآية الأخرى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ والكتاب الذي أنزل مفصلاً هو القرآن العربي باتفاق الناس. وقد أخبر أن الذين آتاهم الكتاب يعلمون أنه منزل من الله بالحق. والعلم لا يكون إلا حقاً فقال: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ ولم يقل يقولون، فإن العلم لا يكون إلا حقاً بخلاف القول، وذكر علمهم ذكر مستشهد به) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾. فأخبر سبحانه أنهم يعلمون ذلك والعلم لا يكون إلا حقاً) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (ونظيرها قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ و«الكتاب» اسم للقرآن بالضرورة والاتفاق؛ فإنهم أو بعضهم يفرقون بين كتاب الله وكلامه، ولفظ «الكتاب» يراد به المكتوب فيه، فيكون هو الكلام، ويراد به ما يكتب

---

(١) النبوات (١٦٦ ـ ١٦٧).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٦ ـ ٣٧).
(٣) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٩).
(٤) مجموع الفتاوى (١٢/ ٢٩٦).

فيه، كقوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾ [الواقعة] وقوله: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣] وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ أخبار مستشهد بهم فمن لم يقر به منا فهم خير منه من هذا الوجه) ا.هـ[١].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾.

(فإن الله تعالى يري عباده آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أن القرآن حق، فخبره صدق وأمره عدل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وقال النبي ﷺ: «لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر»[٣].

وقال: «إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه»[٤].

ووافق ربه في غير واحدة نزل فيها القرآن بمثل ما قال.

وقال ابن عمر: كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر[٥].

وهذا لكمال نفسه بالعلم والعدل. قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ فالله تعالى بعث الرسل بالعلم والعدل؛ فكل من كان أتم علماً وعدلاً كان أقرب إلى ما جاءت به الرسل) ا.هـ[٦].

وقال رحمه الله: (وكذلك الكلام يراد به الكلام الذي هو الصفة، كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ وقوله: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥]) ا.هـ[٧].

قال شيخ الإسلام رحمه الله:

فصل

قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٢٢٣).

(٢) منهاج السنة (٤/ ٥٤٣).

(٣) فضائل الصحابة (١/ ٤٢٨) للإمام أحمد وسنده ضعيف جداً، والترمذي (٣٦٨٦) بلفظ آخر وهو ضعيف أيضاً.

(٤) أبو داود (٢٩٦٢)، وابن ماجه (١٠٨)، وأحمد (٢/ ٤٠١)، وابن سعد (٢/ ٩٩)، وابن أبي عاصم (٢/ ٥٨١) والحديث صحيح.

(٥) فضائل الصحابة للإمام أحمد (١/ ٢٤٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٤٧) والأثر صحيح.

(٦) منهاج السنة (٦/ ٥٥ ـ ٥٦).

(٧) درء تعارض العقل والنقل (٧/ ٢٦٢).

ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ذكر هذا بعد قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾. ثم قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۖ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾ [الكهف] فأخبر في هاتين الآيتين أنه لا مبدل لكلمات الله، وأخبر في الأولى أنها تمت صدقاً وعدلاً، وقد تواتر عند النبي ﷺ أنه كان يستعيذ ويأمر بالاستعاذة بكلمات الله التامات، وفي بعض الأحاديث «التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر».

وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنعام] فأخبر في هذه الآية أيضاً أنه لا مبدل لكلمات الله عقب قوله: ﴿فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ﴾ وذلك بيان أن وعد الله الذي وعده رسله من كلماته التي لا مبدل لها، لما قال في أوليائه: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾.

فإنه ذكر أنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون؛ وأن لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، فوعدهم بنفي المخافة والحزن، وبالبشرى في الدارين. وقال بعد ذلك: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ﴾ فكان في هذا تحقيق كلام الله الذي هو وعده، كما قال: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ﴾ الآية [إبراهيم: ٤٧]. وقال: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [الروم] وقال المؤمنون: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾ [آل عمران] فإخلاف ميعاده تبديل لكلماته وهو سبحانه لا مبدل لكلماته.

يبين ذلك قوله تعالى: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [ق].

فأخبر سبحانه أنه قدم إليهم بالوعيد، وقال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ وهذا يقتضي أنه صادق في وعيده أيضاً وأن وعيده لا يبدل.

وهذا مما احتج به القائلون بأن فساق الملة لا يخرجون من النار وقد تكلمنا عليهم في غير هذا الموضع، لكن هذه الآية تضعف جواب من يقول: إن إخلاف الوعيد جائز، فإن قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ بعد قوله: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ دليل على أن وعيده لا يبدل، كما لا يبدل وعده.

لكن التحقيق الجمع بين نصوص الوعد والوعيد، وتفسير بعضها ببعض من غير تبديل شيء منها، كما يجمع بين نصوص الأمر والنهي من غير تبديل شيء منها، وقد قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ١٥] والله أعلم.

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾.

(ولهذا قال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ ولو أراد النفي لقال: إن يتبعون إلا من ليسوا شركاء، بل بين أن المشرك لا علم معه إن هو إلا الظن والحرص، كقوله: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الذاريات]) ا.هـ[1].

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

(قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وقال: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] فكل ما ذبح لغير الله فلا يؤكل لحمه) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ عام في الأعيان والأفعال؛ وإذا لم تكن حراماً لم تكن فاسدة، لأن الفساد إنما ينشأ من التحريم، وإذا لم تكن فاسدة كانت صحيحة) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (حال الذين يعملون بغير علم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠]) ا.هـ[4].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٦١).
(٢) اقتضاء الصراط (٢/ ٥٥٤).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٩/ ١٥٠).
(٤) القواعد النورانية (٢٢٢).

وقال رحمه الله: (الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ دلت الآية من وجهين:

أحدهما: أنه وبخهم وعنفهم على ترك الأكل مما ذكر اسم الله عليه قبل أن يحله باسمه الخاص، فلو لم تكن الأشياء مطلقة مباحة لم يلحقهم ذم ولا توبيخ، إذ لو كان حكمها مجهولاً، أو كانت محظورة لم يكن ذلك.

الوجه الثاني: أنه قال: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ والتفصيل التبيين، فبين أنه بين المحرمات، فما لم يبين تحريمه ليس بمحرم. وما ليس بمحرم فهو حلال، إذ ليس إلا حلال أو حرام) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: ولهذا قال في إحدى الآيتين: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

فكل من اتبع ذوقاً أو وجداً بغير هدى من الله، سواء كان ذلك عن حب أو بغض، فليس لأحد أن يتبع ما يحبه فيأمر به ويتخذه ديناً، وينهى عما يبغضه ويذمه ويتخذ ذلك ديناً إلا بهدى من الله، وهو شريعة الله التي جعل عليها رسوله. ومن اتبع ما يهواه حباً وبغضاً بغير الشريعة، فقد اتبع هواه بغير هدى من الله) ا.هـ[2].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

فأخبر أنهم يوحون إلى أوليائهم من الإنس ليجادلوكم، فهذه وأمثالها تبين أن الكفار أولياء الشياطين، فهم أحق الناس بالدخول في قوله: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الْإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وقد قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: إن هذه الآية تقتضي أنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا ناراً[3].

---

(١) مجموع الفتاوى (٢١/٥٣٦).
(٢) الاستقامة (١/٢٥٣).
(٣) ابن جرير (١٣٨٩٢).

فدل على أن هذا الاستثناء عنده يقتضي دفع العذاب عنهم، وهذا مدلول الآية، وأنه لأجل هذه الآية يجب أن يتوقف، فلا يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ولا ناراً، وهذا يناقض قول من يقول سوى ما شاء الله من أنواع العذاب، وإلا مدة مقامهم قبل الدخول من حين بعثوا إلى أن دخلوا، فإن ذلك معلوم أنه قبل الدخول لم يكونوا فيها، وقول من يقول في أهل الجنة فإنها صريحة في تناول الكفار) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (قد قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ - إلى قوله - وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ الآية فبين ﷻ أن للأنبياء عدواً من شياطين الإنس والجن يعلم بعضهم بعضاً بالقول المزخرف غروراً وأخبر أن الشياطين توحي إلى أوليائها بمجادلة المؤمنين فالكلام الذي يخالف ما جاءت به الرسل هو من وحي الشياطين وتلاوتهم فمن أعرض عن كتاب الله واتباعه فقد نبذ كتاب الله وراء ظهره واتبع ما تتلوه شياطين الإنس والجن) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وكذلك ما في القرآن من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ وقوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤] إنما هو قوله: بسم الله، وهذا جملة تامة إما اسمية على أظهر قولي النحاة؛ أو فعلية؛ والتقدير ذبحي باسم الله، أو اذبح باسم الله، وكذلك قول القارئ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١﴾ فتقديره: قراءتي بسم الله؛ أو اقرأ بسم الله) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وروى حنبل عن عطاء في ذبيحة النصراني يقول اسم المسيح، قال: كُل، قال حنبل: سمعت أبا عبد الله يسأل عن ذلك، قال: لا تأكل. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، فلا أرى هذا ذكاة ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣]) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (فإنه معنى قوله: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾. وعند أبي عبد الله أن تفسير: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، إنما عني به الميتة. وقد أخرجته في موضعه) ا.هـ[٥].

---

(١) الرد على من قال بفناء الجنة والنار (٦٠).
(٢) فتاوى (٥/ ٥).
(٣) فتاوى (١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١).
(٤) اقتضاء الصراط (٢/ ٥٥٤ ـ ٥٥٥).
(٥) اقتضاء الصراط (٢/ ٥٥٥).

وقال رحمه الله: (وأما احتجاج أحمد على هذه المسألة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾، فحيث اشترطت التسمية في ذبيحة المسلم، هل تشترط في ذبيحة الكتابي؟ على روايتين: وإن كان الخلال هنا قد ذكر عدم الاشتراط فاحتجاجه بهذه الآية يخرج على إحدى الروايتين. فلما تعارض العموم الحاظر وهو قول الله تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾. والعموم المبيح، وهو قوله: ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٥] اختلف العلماء في ذلك) ا.هـ[١].

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

(فقد كفل الله لمن آمن به أن يجعل له نوراً يمشي به. كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (فإن الهدى بعث الله به رسوله، لما كان فيه معنى الماء الذي يحصل به الحياة، ومعنى النور الذي يحصل به الإشراق، ذكر هذين المثلين، كما قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ الآية. فالنور الذي يمشي به في الناس هو البينة والبصيرة) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾؟! فالإيمان الذي يهبه الله لعبده سماء نوراً) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾؟ فهذا وصف المؤمن كان ميتاً في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان. وجعل له نوراً يمشي به في الناس. وأما الكافر فميت القلب في الظلمات) ا.هـ[٦].

---

(١) اقتضاء الصراط (٢/ ٥٥٩).
(٢) مجموع الفتاوى (١١/ ٣٨٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ١٨٦).
(٤) مجموع الفتاوى (١٥/ ٦٣).
(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ٦٤٩).
(٦) مجموع الفتاوى (١٩/ ٩٤).

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌۢ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾.

(وقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾ فدل على أنه أعلم بالمحل الذي يناسب الرسالة، ولو كان الناس مستوين، والتخصيص بلا سبب، لم يكن لهذا العلم معلوم يختص به محل الرسالة) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (والله سبحانه قد أخبر أنه يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس. والاصطفاء افتعال من التصفية، كما أن الاختيار افتعال من الخيرة، فيختار من يكون مصطفى، وقد قال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ﴾ فهو أعلم بمن يجعله رسولاً ممن لم يجعله رسولاً، ولو كان كل الناس يصلح للرسالة لامتنع هذا) ا.هـ.

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾.

(ومن تدبر القرآن تبين له أن عامة ما يذكر الله في خلق الكفر والمعاصي يجعله جزاء لذلك العمل، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥] وقال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل]) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ دليل على أنه أراد ضلاله وهو لم يأمره بالضلال) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (ويقولون: إرادة الله في كتابه نوعان:

«نوع» بمعنى المشيئة لما خلق، كقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾.

و«نوع» بمعنى محبته ورضاه لما أمر به وإن لم يخلقه، كقوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ

---

(١) منهاج السنة (٥/١٠٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٨/٢٢٢).
(٣) منهاج السنة (٣/١٥٦).

وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦]، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء]) ا.هـ[1].

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

(قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «خط لنا رسول الله ﷺ خطاً، وخط خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال: هذا سبيل الله، وهذه السبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣]»[2]) ا.هـ[3].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾.

قال رحمه الله: (ثم هم إنما يعاونون الإنس على الإثم والعدوان إذا كانت الإنس من أهل الإثم والعدوان يفعلون ما تهواه الشياطين فتفعل الشياطين بعض ما يهوونه قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ﴾ فالجن والإنس قد استمتع بعضهم ببعض فاستخدم هؤلاء هؤلاء وهؤلاء هؤلاء في أمور كثيرة كل منهم فعل للآخر ما هو غرضه ليعينه على غرضه والسحر والكهانة من هذا الباب) ا.هـ[5].

وقال رحمه الله: (وفي تفسير علي بن أبي طلحة الوالبي: عن ابن عباس ـ وهو معروف مشهور، ينقل منه عامة المفسرين الذين يسندون التفسير كابن جرير الطبري،

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٤٧٦).
(٢) مرّ تخريجه.
(٣) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٥٥).
(٤) النبوات (٢١١).
(٥) النبوات (٢٠٧ ـ ٢٠٨).

وابن أبي حاتم، وعثمان بن سعيد الدارمي، والبيهقي والذين يذكرون الإسناد مجملاً، كالثعلبي، والبغوي، والذين لا يسندون كالماوردي، وابن الجوزي قال قوله: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، قال: في هذه الآية إنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا ناراً[1].

قال الطبري: وروي عن ابن عباس أنه كان يتأول في هذا الاستثناء: أن الله تعالى جعل أمر هؤلاء القوم في مبلغ عذابه إياهم إلى مشيئته ـ ثنا عبد الله، ثنا معاوية، عن علي، عن ابن عباس، قال: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، قال في هذه الآية: إنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا ناراً[2].

وهذا الوعيد في هذه الآية ليس مختصاً بأهل القبلة فإنه قال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ فـ«أوليائهم من الإنس» لفظ يدخل فيه الكفار قطعاً، فإنهم أحق بموالاتهم من عصاة المسلمين، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾ [الأعراف]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ]، وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء]، فأمر بقتال أولياء الشيطان، وهم الكفار، وقال: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾﴾ [المجادلة]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾.

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) مرّ تخريجه.

فأخبر أنهم يوحون إلى أوليائهم من الإنس ليجادلوكم، فهذه وأمثالها تبين أن الكفار أولياء الشياطين، فهم أحق الناس بالدخول في قوله: ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾.

وقد قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس: إن هذه الآية تقتضي أنه لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا ناراً.

فدل على أن هذا الاستثناء عنده يقتضي دفع العذاب عنهم، وهذا مدلول الآية، وأنه لأجل هذه الآية يجب أن يتوقف، فلا يحكم على الله في خلقه ولا ينزلهم جنة ولا ناراً، وهذا يناقض قول من يقول سوى ما شاء الله من أنواع العذاب، وإلا مدة مقامهم قبل الدخول من حين بعثوا إلى أن دخلوا، فإن ذلك معلوم أنه قبل الدخول لم يكونوا فيها، وقول من يقول في أهل الجنة فإنها صريحة في تناول الكفار.

لكن ذكر البغوي، أن ابن عباس قال: «الاستثناء يرجع إلى قوم سبق فيهم علم الله وأنهم يسلمون فيخرجون من النار»[(١)]. ولم يذكر من نقل هذا عن ابن عباس، فإن أريد بذلك من أسلم في الدنيا فليس كذلك، فإن الخطاب إنما هو لمن كان من أولياء الشيطان والجن الذين استمتع بعضهم ببعض وهؤلاء من جملة المسلمين، وجميع من أسلم سبق فيه علم الله، أنه يسلم، وكأن قائل هذا القول ظن أن هذا خطاب للأحياء، وليس كذلك، بل هذا خطاب لهم يوم القيامة، وإن أراد أنهم يسلمون في جهنم فيخرجون منها، وهذا خلاف ما دل عليه القرآن في غير موضع، فعن عبد الله بن مسعود قال: «ليأتين على جهنم زمان، ليس فيها أحد وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً، وهؤلاء هم الكفار، وعن أبي هريرة مثله»[(٢)] قال البغوي: «ومعناه عند أهل السنة ـ إن ثبت ـ ألا يبقي فيها أحد من أهل الإيمان»[(٣)] ا.هـ[(٤)].

وقال رحمه الله: (قال: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ فجعل الرسل التي أرسلها من النوعين مع أنهم من الإنس) ا.هـ[(٥)].

---

(١) البغوي (٢/١٠٨).

(٢) الطبري (١٢/١١٨) أما عن أبي هريرة فأخرجه إسحاق بن راهوية (الدر المنثور) (٣/٣٥٠).

(٣) البغوي (٢/٣٣٩).

(٤) «الرد على من قال بفناء الجنة والنار» (٥٧ ـ ٦١).

(٥) مجموع الفتاوى (١٦/١٩٢).

وقال رحمه الله: (لقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾، وقيل: الرسل من الإنس؛ والجن فيهم النذر وهذا أشهر؛ فإنه أخبر عنهم باتباع دين محمد ﷺ) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (ويوم يحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس، وقال أولياؤهم من الإنس: ربنا استمتع بعضنا ببعض، وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا، قال: النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله.

قال غير واحد من السلف[٢]: أي كثير من أغويتم من الإنس وأضللتموهم. قال البغوي: قال بعضهم: استمتاع الإنس بالجن ما كانوا يلقون لهم: من الأراجيف، والسحر، والكهانة، وتزيينهم لهم الأمور التي يهيؤنها ويسهل سبيلها عليهم[٣]، واستمتاع الجن بالإنس طاعة الإنس لهم فيما يزينون لهم من الضلالة والمعاصي، قال محمد بن كعب: هو طاعة بعضهم لبعض، وموافقة بعضهم بعضاً[٤]. وذكر ابن أبي حاتم عن الحسن البصري. قال: ما كان استمتاع بعضهم ببعض إلا أن الجن أمرت وعملت الإنس[٥]، وعن محمد بن كعب قال هو الصحابة في الدنيا[٦]، وقال ابن السائب[٧]: استمتاع الإنس بالجن استعاذتهم بهم، واستمتاع الجن بالإنس إن قالوا: قد أسرنا الإنس مع الجن حتى عادوا بنا، فيزدادون شرفاً في أنفسهم، وعظماً في نفوسهم، وهذا كقوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن] قلت: «الاستمتاع بالشيء» هو أن يتمتع به فينال به ما يطلبه ويريده ويهواه، ويدخل في ذلك استمتاع الرجال بالنساء بعضهم ببعض كما قال: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ [النساء: ٢٤] ومن ذلك الفواحش، كاستمتاع الذكور بالذكور والإناث بالإناث.

ويدخل في هذا الاستمتاع بالاستخدام وأئمة الرياسة كما يتمتع الملوك والسادة بجنودهم ومماليكهم، ويدخل في ذلك الاستمتاع بالأموال كاللباس، ومنه قوله: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٦] وكان من السلف من يمتع

---

(١) مجموع الفتاوى (٤/ ٢٣٤).
(٢) ابن جرير (١٢/ ١٢٨) و«زاد المسير» (٣/ ١٢٩).
(٣) في المطبوع (فعلها).
(٤) البغوي (٢/ ١٠٧ ـ ١٠٨).
(٥) ذكره ابن كثير (٢/ ١٧٦)، والسيوطي في الدر (٣/ ٣٥٧).
(٦) قريباً منه في «زاد المسير» (٣/ ١٢٣).
(٧) قريباً منه في «زاد المسير» (٣/ ١٢٣).

المرأة بخادم فهي تستمع بخدمته، ومنهم من يمتع بكسوة أو نفقة، ولهذا قال الفقهاء: أعلى المتعة خادم، وأدناها كسوة تجزئ فيها الصلاة.

وفي «الجملة» استمتاع الإنس بالجن والجن بالإنس يشبه استمتاع الإنس بالإنس، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف]) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ فشهادتهم على أنفسهم هو إقرارهم، وهو إذاً الشهادة على أنفسهم) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

فقد خاطب الجن والإنس، واعترف المخاطبون بأنهم جاءتهم رسل يقصون عليهم آياته وينذرونهم لقاء يوم القيامة. ثم قال: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ أي هذا بهذا السبب، فعلم أنه لا يعذب من كان غافلاً ما لم يأته نذير، فكيف الطفل الذي لا عقل له؟!

ودل أيضاً على أن ذلك ظلم تنزه سبحانه عنه، وإلا فلو كان الظلم هو الممتنع لم يتصور أن يهلكهم بظلم، بل كيفما أهلكهم فإنه ليس بظلم عند الجهمية الجبرية.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [القصص]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾ [طه] قال المفسرون: الظلم أن يحمل عليه سيئات غيره، والهضم أن ينقص من حسناته، فجعل سبحانه عقوبته بذنب غيره ظلما ونزه نفسه عنه.

ومثل هذا كثير كقوله: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٣/ ٨٠ ـ ٨١).
(٢) درء تعارض العقل (٨/ ٤٨٥).

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥] وكذلك قوله: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ [ق] فبين سبحانه أنه قدم بالوعيد وأنه ليس بظلام للعبيد كما قال في الآية الأخرى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾﴾ [هود] فهو سبحانه نزه نفسه عن ظلمهم، وبين أنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بشركهم، فمن لم يكن ظالماً لنفسه تكون عقوبته ظلماً تنزه الله عنه.

وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الزخرف].

وهذا الظلم الذي نزه نفسه عنه: إن كان هو الممتنع الذي لا يمكن فعله فأي فائدة في هذا؟ وهل أحد يخاف أن يفعل به ذلك؟ وأي تنزيه في هذا؟ وإذا قيل: هو لا يفعل فأي مدح في هذا مما يتميز به الرب سبحانه عن العالمين) ا.هـ[1].

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

(﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ هذا يقال [لهم] يوم القيامة) ا.هـ[2].

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾.

وقال: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ هذا بهذا السبب، فعلم أنه لا يعذب من كان غافلاً ما لم يأته أي نذير، ودل أيضاً على أن ذلك ظلم تنزه سبحانه عنه) ا.هـ[3].

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

(فالخير ما كان خيراً في غيره، والشر ما كان شراً من غيره، والخير والشر درجات. ولهذا قال تعالى لما ذكر أهل الجنة وأهل النار، قال: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا

---

(١) منهاج السنة (٥/ ١٠٢ ـ ١٠٤).
(٢) تفسير آيات أشكلت (١/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦).
(٣) مجموع الفتاوى (١٩/ ٢١٥ ـ ٢١٦).

عَمِلُوٓاْ﴾، وقال تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران]، وكذلك ذكر تعالى في الأنعام والأحقاف بعد ذكر الطائفتين.

ولهذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم[١]: درجات الجنة تذهب علواً، ودرجات النار تذهب سفولاً، فدرجات الجنة كلها فيها النعيم، وبعضها خير من بعض، ودرجات النار كلها فيها العذاب، وبعضها شر من بعض) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (قال سبحانه: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾: لأهل الجنة ولأهل النار درجات من أعمالهم بحسبها، كما قد بسط في غير هذا الموضع) ا.هـ[٣].

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

(قال: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ والمكان والمكانة قد يراد به ما يستقر الشيء عليه وإن لم يكن محيطاً به كالسقف مثلاً، وقد يراد به ما يحيط به) ا.هـ[٤].

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾.

(وبأنهم حرموا ما لم يحرمه الله ورسوله كما قال ابن عباس إذا أردت أن تعرف جهل العرب فاقرأ سورة الأنعام من قوله: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ ـ الآيات ـ) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (والعادات الأصل فيها العفو، فلا يحظر منها إلا ما حرمه، وإلا دخلنا في معنى قوله: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ [يونس: ٥٩] ولهذا ذم الله المشركين الذين شرعوا من الدين ما لم يأذن به الله، وحرموا ما لم يحرمه في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) جامع الرسائل (١/ ١٣٣).
(٣) جامع الرسائل (١/ ١١٦).
(٤) مجموع الفتاوى (١٥/ ٦٣).
(٥) نظرية العقد (١٣).

وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَـٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَـٰذِهِۦٓ أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ فذكر ما ابتدعوه من العبادات، ومن التحريمات. وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «قال الله تعالى: إني خلقت عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً» ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (قال ابن عباس[2]: إذا أردت أن تعرف جهل العرب فاقرأ من قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ الآية؛ وذلك أن الله ذم المشركين على ما ابتدعوه من تحريم الحرث والأنعام، وما ابتدعوه من الشرك، وذمهم على احتجاجهم على بدعهم بالقدر، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل]) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (أخبر عما ذمه من حال المشركين في دينهم وتحريمهم حيث قال: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ إلى آخر الكلام، فإنه ذكر فيه ما كانوا عليه من العبادات الباطلة من أنواع الشرك، ومن الإباحة الباطلة في قتل الأولاد ومن التحريمات الباطلة، من السائبة، والبحيرة، والوصيلة، والحامي، ونحو ذلك. فذم المشركين في عباداتهم، وتحريماتهم، وإباحتهم) ا.هـ[4].

وقال رحمه الله: (ولهذا ذم الله المشركين في سورة الأنعام والأعراف وغيرهما، لكونهم حرموا ما لم يحرمه الله، ولكونهم شرعوا ديناً لم يأذن به الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ﴾ إلى آخر السورة. وما ذكره في صدر سورة الأعراف، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٩/ ١٧ ـ ١٨).
(٢) لم أعرفه في تفسير هذه الآية وسيأتي بعد قليل لفظه الصحيح.
(٣) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٥٧).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٦٥).

لَمْ يَأْذَنْ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ دل على أن هذا حكم سيء، والحكم السيء هو الظلم الذي لا يجوز، فعلم أن الله تعالى منزه عن هذا. ومن قال إنه يسوى بين المختلفين، فقد نسب إليه الحكم السيء. وكذلك تفضيل أحد المتماثلين، بل التسوية بين المتماثلين والتفضيل بين المختلفين هو من العدل والحكم الحسن الذي يوصف به الرب ﷻ) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وسورة الأنعام: من عند قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ إلى قوله: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ السورة.

خطاب مع هؤلاء الضرب. ولهذا يقول تعالى في أثنائها: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾) [الأنعام: ١٤٨] ا.هـ[٣].

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾.

(قال ابن جرير في تفسيره: حدثني الحرث حدثنا عبد العزيز حدثنا أبو عوانة عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ[٤] ما بعد المائة: ﴿. . . قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الآيات) ا.هـ[٥].

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾.

(وكذلك ما كان يحرمه أهل الجاهلية مما ذكره الله في القرآن كالسائبة والوصيلة والحام وغير ذلك، هو من الدين المبدل؛ ولهذا لما ذكر الله ذلك عنهم في سورة

---

(١) اقتضاء الصراط (٢/ ٨٣٥).
(٢) منهاج السنة (٥/ ١٠٧).
(٣) اقتضاء الصراط (١/ ٣١٠).
(٤) هذا الأثر الصحيح في هذه الآية وفي ابن جرير المطبوع تحريف كبير ففيه (١٣٩٥٣): حدثنا الحارث قال: حدثنا عبد العزيز قال: إذا سرك. . .) وما نقله شيخ الإسلام هو الصواب والله أعلم.
(٥) نظرية العقد (١٣).

الأنعام بين أن من حرم ذلك فقد كذب على الله وذكر تعالى ما حرمه على لسان محمد وعلى لسان موسى في الأنعام فقال: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾، وكذلك قال بعد هذا: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾ [النحل: ١١٨].

فبين أن ما حرمه المشركون لم يحرمه على لسان موسى ولا لسان محمد، وهذان هما اللذان جاءا بكتاب فيه الحلال والحرام، كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ﴾ [القصص: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾؟ [الأنعام: ٩١]، إلى قوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [الأنعام: ٩٢]) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (ولهذا حرمنا بسنة رسول الله ﷺ أشياء ليست في القرآن كما عهده إلينا ﷺ ولم يكن هذا نسخاً لقوله: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ الآية إذ هذه نفت تحريم ما سوى المستثنى ولم تثبت حل ما سوى المستثنى وبين نفي التحريم وإثبات الحل مرتبة العفو ورفع العفو ليس بنسخ ولهذا قال في سورة المائدة: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾ [المائدة: ٥] والمائدة نزلت بعد الأنعام بسنين فلو كانت آية الأنعام تضمنت ما سوى المستثنى ما قيد الحل بقوله اليوم أحل لكم الطيبات ومن فهم هذا استراح من اضطراب الناس في هذا المقام مثل كون آية الأنعام واردة على سبب فتكون مختصة به أو معرضة للتخصيص ومثل كونها منسوخة نسخاً شرعياً بالأحاديث بناء على جواز نسخ القرآن بالخبر المتلقى بالقبول أو الصحيح مطلقاً ولقد زل هنا مستدلاً ومستشكلاً ومن اعتقد أن آية الأنعام من آخر القرآن نزولاً) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (وقد رواه الإمام أحمد في المسند عن ابن عباس قال: ماتت شاة لسودة بنت زمعة فقالت: يا رسول الله ﷺ ماتت فلانة، تعني: الشاة. فقال: «فلولا أخذتم مسكها؟!» فقالت: آخذ مسك شاة قد ماتت؟ فقال لها رسول الله ﷺ: «إنما

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ١٨٢ ـ ١٨٣). (٢) الفتاوى (٣/ ١٨٢ ـ ١٨٣).

قال: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾»[١]، فأرسلت إليها فسلخت مسكها فدبغته، فاتخذت منه قربة حتى تخرقت عندها) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (ولهذا لم يكن تحريم النبي ﷺ: «الكل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير»[٣] ناسخاً لما دل عليه قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ﴾ الآية من أن الله ﷻ لم يحرم قبل نزول الآية إلا هذه الأصناف الثلاثة؛ فإن هذه الآية نفت تحريم ما سوى الثلاثة إلى حين نزول هذه الآية) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً﴾. نفي التحريم عن غير المذكور، فيكون الباقي مسكوتاً عن تحريمه عفواً، والتحليل إنما يكون بخطاب) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (وكره مالك أكل ما ذبحه أهل الكتاب لكنائسهم، أو لأعيادهم، من غير تحريم. وتأول قول الله تعالى: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ قال ابن القاسم: وكذلك ما ذبحوا وسموا عليه اسم المسيح، وهو بمنزلة ما ذبحوا لكنائسهم، ولا أرى أن يؤكل) ا.هـ[٦].

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾.

(﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ [النحل] وقال تعالى فيما رواه مسلم في صحيحه من حديث عياض بن حمار: «إني خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»[٧]) ا.هـ[٨].

---

(١) البخاري (٦٦٨٦)، وأحمد (٦/ ٤٢٩).
(٢) مجموع الفتاوى (٢١/ ٩٤).
(٣) مرّ تخريجه.
(٤) مجموع الفتاوى (٣٥/ ٢١٥).
(٥) مجموع الفتاوى (٧/ ٤٦).
(٦) اقتضاء الصراط (٢/ ٥٥٦).
(٧) مرّ تخريجه.
(٨) مجموع الفتاوى (٣/ ٣٦٠).

وقال رحمه الله: (إن عامة ما ذم الله به المشركين في القرآن من الدين المنهي عنه إنما هو الشرك والتحريم، وكذلك حكى عنهم في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]، ومثل ذلك في النحل وفي الزخرف: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، وقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس]) ا.هـ[(١)].

وقال رحمه الله: (فريق كذبوا بالقضاء والقدر، وصدقوا بالأمر والنهي، وفريق آمنوا بالقضاء والقدر، لكن قصروا في الأمر والنهي. وهؤلاء شر من الأولين، فإن هؤلاء من جنس المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ وأولئك من جنس المجوس) ا.هـ[(٢)].

وقال رحمه الله: (فأما الأولون فهم الذين اعترفوا بالقضاء والقدر، وزعموا أن ذلك يوافق الأمر والنهي، وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ إلى آخر الكلام من سورة الأنعام. وقال: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ في سورة النحل، وفي سورة الزخرف: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠]) ا.هـ[(٣)].

وقال رحمه الله: (وقال: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ فجمعوا بين الشرك والتحريم، والشرك يدخل فيه كل عبادة لم يأذن الله بها، فإن المشركين يزعمون أن عبادتهم موجبة؛ وإما مستحبة: ثم منهم من عبد غير الله ليتقرب به إلى الله، ومنهم من يدع ديناً عبد به الله، كما أحدثت النصارى من العبادات) ا.هـ[(٤)].

وقال رحمه الله: (فإن هؤلاء المشركين لما أنكروا ما بعثت به الرسل من الأمر والنهي، وأنكروا التوحيد الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له، وهم يقرون بتوحيد الربوبية، وأن الله خالق كل شيء ما بقي عندهم من فرق من جهة الله تعالى بين مأمور

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ١١٣ ـ ١١٤).
(٢) الاستقامة (١/ ١٧٦).
(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٥٦).
(٤) مجموع الفتاوى (٤/ ١٩٦)، واقتضاء الصراط (٢/ ٥٨١).

ومحظور. فقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ وهذا حق؛ فإن الله لو شاء أن لا يكون هذا لم يكن؛ لكن أي فائدة لهم في هذا غايته أن هذا الشرك والتحريم بقدر، ولا يلزم إذا كان مقدوراً أن يكون محبوباً مرضياً لله، ولا علم عندهم بأن الله أمر به ولا أحبه ولا رضيه بل ليسوا في ذلك إلا على ظن وخرص) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ فإن المشركين استدلوا بالقدر على نفي الأمر والنهي، والمحبوب والمكروه، والطاعة والمعصية. ومن سلك هذا المسلك فهو في نوع من الكفر البين) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم احتجوا في ذلك بقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ الآية. وقد ظن طائفة من المثبتين للقدر أنهم قالوا هذا على سبيل التكذيب بالقدر والاستهزاء به لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وبهذا أجاب القدرية لما احتجت عليهم بهذه الآية، وهذا غلط، فإن العرب كلهم كانوا يثبتون القدر ويقرون أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه، فلم يكونوا مكذبين بذلك ولا ذمهم الله سبحانه على التكذيب بالقدر. بل على الاحتجاج به على إبطال الأمر والنهي وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي كذبوا بالأمر والنهي الذي جاءت به الرسل، فإن هذا هو تكذيب الذين من قبلهم الذي ذكر الله في القرآن، ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ أي فإن المحتج بالقدر لا يحتج به إلا إذا لم يكن عنده علم، بل يتبع هواه فإنها حجة متناقضة، إذ لو احتج عليه بالقدر لما قبل هو ذلك منه، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع؟) ا.هـ[٣].

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ مطالبة بالعلم وذم لمن يتبع الظن وما عنده علم، وكذلك قوله: ﴿نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ وقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وأمثال ذلك لمن عمل بغير علم، وعمل بالظن) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بالشرائع من الأمر والنهي ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ﴾ بأن الله شرع الشرك

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ٣٥٣).
(٢) الاستغاثة (٢/ ٣٠).
(٣) الاستقامة (١٧٨ ـ ١٧٩).
(٤) مجموع الفتاوى (١٣/ ١١٠ ـ ١١١).

وتحريم ما حرمتموه. ﴿إِن تَتَّبِعُونَ﴾ في هذا ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وهو توهمكم أنَّ كل ما قدره فقد شرعه ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾: أي تكذبون وتفترون بإبطال شريعته، ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ على خلقه حين أرسل الرسل إليهم فدعوهم إلى توحيده وشريعته، ومع هذا فلو شاء هدى الخلق أجمعين إلى متابعة شريعته، لكنه يمن على من يشاء فيهديه فضلاً منه وإحساناً، ويحرم من يشاء، لأن المتفضل له أن يتفضل، وله أن لا يتفضل، فترك تفضله على من حرمه عدل منه وقسط. وله في ذلك حكمة بالغة) ا.هـ[١].

﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

قال رحمه الله: (وقال في سورة الأنعام: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [أي] بإرسال الرسل وإنزال الكتب، كما قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]، ثم أثبت القدر بقوله: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، فأثبت الحجة الشرعية، وبين المشيئة القدرية، وكلاهما حق) ا.هـ[٢].

وقال رحمه الله: (قوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾، يعني يوم أخذ الميثاق) ا.هـ[٣].

﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

قال رحمه الله: (كما صرح بنهيه عن اتباع أهواء المشركين في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾) ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (قال الربيع بن خثيم: من سره أن يقرأ كتاب محمد ﷺ الذي لم يفض خاتمه بعده، فليقرأ آخر سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآيات) ا.هـ[٥].

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾.

---

(١) مجموع الفتاوى (٨/ ١٩٨ ـ ١٩٩).
(٢) منهاج السنة (٣/ ٦٠).
(٣) درء تعارض العقل والنقل (٨/ ٤٢٣).
(٤) الجواب الصحيح (٣/ ٥٦ ـ ٥٧).
(٥) مجموع الفتاوى (٢٥/ ١٢٧).

(قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ فهذا محرم مطلقاً لا يجوز منه شيء، ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ فهذا فيه تقييد. فإن الوالد إذا دعا الولد إلى الشرك ليس له أن يلبيه بل له أن يأمره وينهاه، وهذا الأمر والنهي للولد هو من الإحسان إليه. وإذا كان مشركاً جاز للولد قتله، وفي كراهته نزاع بين العلماء.

قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ﴾ فهذا تحريم خاص ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ هذا مطلق، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ هذا مقيد، فإن يتامى المشركين أهل الحرب يجوز غنيمة أموالهم؛ لكن قد يقال: هذا أخذ وقربان بالتي هي أحسن. إذا فسر الأحسن بأمر الله ورسوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ هذا مقيد بمن يستحق ذلك ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ هذا مطلق.

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ فالوفاء واجب؛ لكن يميز بين عهد الله وغيره، ويفرق بين ما يسكت عنه الإنسان وبين ما يلفظ به، ويفعله ويأمر به، ويفرق بينها قدره الله، فحصل بسببه خير، وبين ما يؤمر به العبد، فيحصل بسببه خير) ا.هـ[1].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾.

(ولهذا قال تعالى: ﴿أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، فإن تحديد الكيل والوزن مما قد يعجز عنه البشر ولهذا يقال: هذا أمثل من هذا إذا كان أقرب إلى المماثلة منه؛ إذا لم تحصل المماثلة من كل وجه) ا.هـ[2].

وقال رحمه الله: (ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، فذكر أنه لم يكلف نفساً إلا وسعها حين أمر بتوفية الكيل والميزان بالقسط؛ لأن الكيل لا بد له أن يفضل أحد المكيلين على الآخر ولو بحبة أو حبات، وكذلك التفاضل في الميزان قد يحصل بشيء يسير لا يمكن الاحتراز منه. ـ فقال تعالى: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾) ا.هـ[3].

وقال رحمه الله: (ولهذا قرنه بالصدق في قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا

---

(١) مجموع الفتاوى (١٤/ ٤٧٧ ـ ٤٧٨).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٥٦٥).
(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ١٦٧).

قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ لأن العدل في القول خبر يتعلق بالماضي والحاضر، والوفاء بالعهد يكون في القول المتعلق بالمستقبل، كما قال تعالى: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة] وقال سبحانه: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١] قال المفسرون - كالضحاك وغيره - تساءلون به: تتعاهدون وتتعاقدون. وذلك: لأن كل واحد من المتعاقدين يطلب من الآخر ما أوجبه العقد من فعل أو ترك، أو مال أو نفع ونحو ذلك، وجمع سبحانه في هذه الآية وسائر السورة أحكام الأسباب التي بين بني آدم المخلوقة: كالرحم، والمكسوبة: كالعقود التي يدخل فيها الصهر، وولاية مال اليتيم ونحو ذلك) ا.هـ[(١)].

وقال رحمه الله: (وأما باب العدل فقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ وقال تعالى: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ الآية [النساء: ١٣٥] وقال: ﴿كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨] وقال؛ ﴿شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٦] ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ٢] فهذا العدل والقسط في هذه المواضع هو الصدق المبين، وضده الكذب والكتمان) ا.هـ[(٢)].

﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

(وفي السنن عن عبد الله بن مسعود[(٣)] قال: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً، وخط خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذا سبيل الله وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، من أجابه قذفه في النار، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾.

فسمى سبحانه طريقه صراطاً، وسمى تلك سبلاً، ولم يسمها صراطاً كما سماها

(١) مجموع الفتاوى (٢٩/١٣٨ - ١٣٩). (٢) مجموع الفتاوى (٢٠/٨٣ - ٨٤).
(٣) مرّ تخريجه.

سبيلاً، وطريقه يسميه سبيلاً، كما يسميه صراطاً) ا.هـ[١].

وقال رحمه الله: (وقد أمرنا الله أن نتبع هذا الصراط المستقيم، ولا نعدل عنه إلى السبل المبتدعة، فقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: خط لنا رسول الله ﷺ خطاً، وخط خطوطاً عن يمينه وشماله، ثم قال: هذا سبيل الله، وهذه سبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ ولهذا أمرنا الله أن نقول في صلاتنا: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾﴾ [الفاتحة]. وقال النبي ﷺ: «اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون») ا.هـ[٢].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

(أنه سبحانه قال: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ فتبين أنه أنزل القرآن كراهة أن يقولوا ذلك ومنعاً لأن يقولوا ذلك ودفعاً لأن يقولوا ذلك، فلو كان قد أنزل على أكثر من طائفتين لكان هذا القول كذباً فلا يحتاج إلى مانع من قوله) ا.هـ[٣].

﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

(﴿أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾﴾، فذكر سبحانه أنه يجزي الصادف عن آياته مطلقاً - سواء كان مكذباً أو لم يكن - سوء العذاب بما كانوا يصدفون، يبين ذلك أن كل من

---

(١) الجواب الصحيح (٣/ ١٨٠) الفتاوى (الاصبهانية) (٥/ ١١٣) مجموع الفتاوى (١/ ١٦٢) (٣/ ١٢٧، ١٨٠)، (٤/ ٥٧) (١١/ ٥٧٣، ٦١٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٧١ - ٣٧٢).

(٣) مجموع الفتاوى (٣٢/ ١٨٧).

لم يقر بما جاء به الرسول فهو كافر، سواء اعتقد كذبه أو استكبر عن الإيمان به، أو أعرض عنه اتباعاً لما يهواه، أو ارتاب فيما جاء به، فكل مكذب بما جاء به فهو كافر، وقد يكون كافراً من لا يكذبه إذا لم يؤمن به) ا.هـ[١].

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

(قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ يقال في تفسيره: إنها طلوع الشمس من مغربها فإذا لم ينفع الرجل إيمانه عند الآيات في الدنيا فكيف ينفعه يوم القيامة فيستحق به النظر إلى الله تعالى) ا.هـ[٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾.

(قال مجاهد[٣] في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ قال: هم أهل البدع والشبهات، فهم في أمور مبتدعة في الشرع، مشتبهة في العقل») ا.هـ[٤].

وقال رحمه الله: (وقال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ فبرأ نبيه ﷺ من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً. كما نهانا عن التفرق، والاختلاف، بقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]) ا.هـ[٥].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ...﴾، وقال ﷺ: «من رغب عن سنتي فليس مني»[٦]) ا.هـ[٧].

---

(١) درء تعارض العقل (١/ ٥٦).
(٢) بيان تلبيس الجهمية (١/ ٣٥٢).
(٣) لم أجده عن مجاهد إنما عن غيره من التابعين والصحابة، ويروى مرفوعاً ولا يصح (٣/ ٦٣) الدر المنثور.
(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٢٧).
(٥) مجموع الفتاوى (٢٤/ ١٧١).
(٦) مرّ تخريجه.
(٧) الجواب الصحيح (١/ ٣٦٣).

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

فصل

في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ [النمل]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة].

روى ابن أبي حاتم في هذه الآيات الثلاث: ثنا أبو سعيد الأشج، ثنى ابن فضيل، عن الحسن بن عبيد الله، عن جامع بن شداد، عن الأسود بن هلال، عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ قال: هي لا إله إلا الله[١].

قال: وروي عن عبد الله بن عباس[٢]، وأبي هريرة[٣]، وعلي بن الحسين[٤] وسعيد بن جبير، والحسن[٥]، وعطاء[٦]، ومجاهد[٧]، وأبي صالح [ذكوان][٨]، ومحمد بن كعب القرظي[٩]، والنخعي[١٠]، والضحاك[١١]، والزهري، وعكرمة[١٢]، وزيد بن أسلم، وقتادة[١٣] مثل ذلك.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في ثلاثة مواضع من تفسيره: الأول: في تفسير سورة الأنعام، رقم الأثر (١٢١٦)، الثاني: في تفسير سورة النمل، رقم الأثر (٥٧٣)، الثالث: في تفسير سورة القصص رقم الأثر (٦٠٤)، الطبري (١٢/ ٢٧٦ ـ شاكر)، الحاكم في مستدركه (٢/ ٤٤١).

(٢) الطبري (١٢/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩ ـ شاكر) وعزاه صاحب الدر (٣/ ٤٠٤) إلى ابن المنذر.

(٣) الطبري (٢٠/ ٢٢) وعزاه في الدر (٣/ ٤٠٤) (٦/ ٣٨٥) إلى أبي الشيخ وعبد بن حميد وابن المنذر.

(٤) الطبري (٢٠/ ٢٣).

(٥) الطبري (١٢/ ٢٧٨ ـ شاكر) لسعيد بن جبير والحسن.

(٦) الطبري (١٢/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ـ شاكر).

(٧) الطبري (١٢/ ٢٧٧ ـ ٢٧٨ ـ شاكر)، وعزاه السيوطي (٦/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧) إلى الفريابي وعبد بن حميد.

(٨) الطبري (١٢/ ٢٧٨ ـ شاكر).

(٩) الطبري (١٢/ ٢٧٧ ـ شاكر).

(١٠) الطبري (١٢/ ٢٧٧ ـ شاكر).

(١١) الطبري (١٢/ ٢٧٨ ـ شاكر).

(١٢) الطبري (٢٠/ ٢٣).

(١٣) الطبري (٢٠/ ٢٣).

والسيئة: قال: ثنا محمّد بن عزيز الأيلي، حدثني سلامة، عن عقيل، عن ابن شهاب قال: قال عقبة بن عامر: «تلقاني أصحابي فقالوا: قال النبي ﷺ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ قال: هي كلمة الإشراك»[١] وكذلك روى الوالبي عن ابن عباس قال: هي الشرك[٢].

[قال:] وروي عن عبد الله بن مسعود[٣]، وأنس بن مالك[٤]، وأبي وائل[٥]، وعطاء[٦]، والحسن[٧]، وسعيد بن جبير[٨]، وعكرمة[٩]، والنخعي[١٠]، وأبي صالح[١١]، والزهري،[١٢] وزيد بن أسلم[١٣]، ومحمد بن كعب[١٤]، والسدي[١٥]، وقتادة[١٦]، والضحاك[١٧] مثله.

وذكر في قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤] فذكر بإسناده عن السدي: «من جاء بالسيئة فجزاؤها سيئة مثلها من جميع الذنوب، وذلك عند الحساب إذا حوسب ألقي بدل كل حسنة عشر سيئات، فإن بقيت حسنة [واحدة] أضعفت له ودخل بها الجنة، وإن كانت سيئاته عند المقاصة إذا ألقيت عشراً، بحسنة أكثر من حسناته فزادت سيئة واحدة كان جزاؤه النار إلا أن يغفر الله [سبحانه] [له][١٨].

---

(١) ابن أبي حاتم «تفسير سورة الأنعام» (١٢٢٢) وسنده ضعيف.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في ثلاثة مواضع من تفسيره: الأول: في تفسير سورة الأنعام رقم (١٢٢٢٣)، الثاني: في تفسير سورة النمل رقم (٥٧٩) الثالث: في تفسير سورة القصص رقم (٦٢٧)، والطبري (٢٠/ ٢٢).
(٣) الطبري (١٢/ ٢٧٦ ـ شاكر)، الحاكم (٢/ ٤٤١).
(٤) ابن كثير بدون سند.
(٥) الطبري (٢٠/ ٢٣)، وكيع في الزهد (١/ ٢٨٢).
(٦) الطبري (٢/ ٢٨٢ ـ شاكر).
(٧) الطبري (٢٠/ ٢٣).
(٨) الطبري (١٢/ ٢٧٧ ـ شاكر).
(٩) الطبري (٢٠/ ٢٣).
(١٠) الطبري (٢٠/ ٢٢).
(١١) الطبري (١٢/ ٢٧٨ ـ شاكر).
(١٢) ابن كثير.
(١٣) ابن كثير.
(١٤) الطبري (٢٠/ ٢٣).
(١٥) ابن كثير.
(١٦) الطبري (٢/ ٢٨١)، عبد الرزاق في تفسيره (١/ ٥١).
(١٧) الطبري (٢٠/ ٢٣).
(١٨) ابن أبي حاتم (القصص) (٦٤٥).

وتضعيف الحسنة إلى عشر أمثالها وإلى سبعمائة ضعف، قد ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ من حديث ابن عباس[١]، وأبي هريرة[٢]، وأبي ذر[٣]، وأن السيئة لا يجزى العبد إلا مثلها، وأن الهمّ بالحسنة حسنة، والهمّ بالسيئة لا يكتب حتى يعملها، فتكتب سيئة واحدة، وإن تركها لله وخوفاً منه كتبت [له] حسنة.

وجاء هذا التفصيل في أعمال كثيرة. كقوله في حديث عبد الله بن عمرو: «وصم من كل شهر ثلاثة أيام فذلك صيام الدهر الحسنة بعشر أمثالها»[٤]، وفي حديث آخر: «صوم شهر الصبر وصيام ثلاثة أيام من كل شهر صيام الدهر»[٥]، وقال: «من صام رمضان وأتبعه بست من شوال كان كصيام الدهر الحسنة بعشر أمثالها»[٦].

فهذا لأن مجموع صيام رمضان والستة الأيام من بعده يعدل صيام الدهر، فإنه صام ستة وثلاثين يوماً [بثلاثمائة] وستين يوماً، وكذلك صيام ثلاثة أيام من كل شهر.

وفي أحاديث المعراج في الصلوات هي خمس، وهي خمسون: الحسنة بعشر أمثالها، لا يبدل القول لديّ، فهي خمس في العمل وخمسون في الأجر.

فالذين قالوا: إن الحسنة هي التوحيد، والسيئة هي الشرك، كما ذكر [ذلك] عن الصحابة والتابعين، ولم يذكر في ذلك خلافاً، دليله قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ

---

(١) حديث نصه: عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل قال: قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة» رواه الشيخان.

(٢) حديث أبي هريرة لفظه نحو لفظ حديث ابن عباس السابق، وقد أخرجه بألفاظ مختلفة: مسلم.

(٣) نصه: عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عز وجل: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها وأزيد، ومن جاء بالسيئة فجزاؤه سيئة مثلها، أو أغفر ومن تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً، ومن تقرب مني ذراعاً تقربت منه باعاً...» رواه مسلم.

(٤) متفق عليه.

(٥) أحمد (٢/ ٢٦٣)، والبيهقي (٤/ ٢٩٣) والحديث صحيح.

(٦) مرّ تخريجه.

خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ [النمل]؛ وذلك لأن جميع أعمال البر هي داخلة في التوحيد.

فإن التوحيد وهو معنى قول: «لا إله إلا الله» هو أن يعبد الله وهو تعالى إنما يعبد بما أمر به، فهو العمل لله بأمر الله. كما قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة].

فكل عمل من أعمال البر فهو جزء من التوحيد ومن العمل لله، ومن عبادة الله توحيده، ومن فروع ذلك قال [الله] تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

فالكلمة الطيبة هي التوحيد، وهي كالشجرة، والأعمال ثمارها في كل وقت. فجميع الأعمال الحسنة تضاعف لصاحبها، وجميعها من عبادة الله وحده، وهي من فروع قول: «لا إله إلا الله» بل الأعمال تحقق قول: «لا إله إلا الله»، فإن الإيمان قول وعمل. قال النبي ﷺ: «الإيمان بضع وستون، أو بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[1].

فمن قال الحسنة «لا إله إلا الله» لم يرد أن هذه الكلمة وحدها هي الحسنة دون العمل بمقتضاها، بل هي عنده الشجرة الجامعة، والأعمال داخلة فيها وفروع لها.

وكذلك السيئة هي العمل لغير الله، وهذا هو الشرك، فإن الإنسان همّام حارث لا بد له من عمل ولا بد له من مقصود معبود يعمل لأجله، فالعمل لله: هو الإخلاص والتوحيد له. والعمل لغيره: هو الشرك، وإن عمل لله ولغيره فذلك أيضاً شرك.

والذنوب كلها جزء من الشرك، وهي من فروعه، فإنها جميعها طاعة للشيطان واتباع لخطواته. قال [الله] تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس].

وقال الشيطان: ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وقد قال أبو هريرة: «سأل أبو بكر الصديق النبي ﷺ أن يعلمه دعاء يدعو به إذا أصبح وأمسى.

---

(١) مرّ تخريجه.

فقال: «[قل:] اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه. قله إذا أصبحت، وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك» [رواه أبو داود، والترمذي والنسائي من حديث عمرو بن عاصم. قال الترمذي: «حديث حسن صحيح»][(١)].

لكن إذا كان الإنسان موحداً وقد فعل بعض الذنوب نقص إيمانه وتوحيده بحسب [ذلك]؛ كما قال النبي ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»[(٢)].

ومن ليس بمؤمن فليس بمخلص، فإن المخلص لله مؤمن.

وقد روى البخاري عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ [قال]: «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي رضي وإن منع سخط»[(٣)].

وقال: «من حلف بغير الله فقد أشرك»[(٤)].

وقال: «الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، فقال أبو بكر: فكيف ننجو منه يا رسول الله؟ قال: قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»[(٥)].

فهذا ما يخفى على الإنسان في نفسه، فكيف بما لا يخفى؟ لكن إذا لم يعدل بالله [غيره] فيحب غير الله مثل ما يحب الله، بل كان الله أحب إليه وأخوف عنده [وأرجى عنده] من كل مخلوق، فهذا قد خلص من الشرك الأكبر، وأما الشرك الأصغر فلا يخلص منه إلّا من خلص من الذنوب كلها.

وقد ثبت عن النبي ﷺ [أنه] قال: «من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة»[(٦)]، و«من كان آخر كلامه: لا إله إلا الله دخل الجنة»[(٧)].

---

(١) أبو داود (٥٠٦٧)، والترمذي (٣٣٩٢)، والنسائي (٤/ ٤٠١) وأحمد (١/ ٩) والحديث صحيح.
(٢) متفق عليه. (٣) البخاري.
(٤) أحمد (٢/ ٦٩، ٨٦، ١٢٥)، وأبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥)، والحاكم (١/ ٦٥)، والبيهقي (١٠/ ٢٩) والحديث صحيح.
(٥) هذا الحديث له طرق كثيرة وروي عن ابن عباس وعائشة وأبي موسى الأشعري والحديث بمجموع طرقه يرتقي للصحة والله أعلم.
(٦) مرّ تخريجه.
(٧) أبو داود (٣١١٦)، والحاكم (١/ ٥٠٣) وهو حديث صحيح.

وقال: «أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قبل نفسه»[١].

وقال: «من شهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما فيحجب عن الجنة»[٢]، وقال: «من شهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار»[٣]، وقال: «ما من أحدٍ يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلّا حرمه [الله] على النار»[٤].

وحقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله [تعالى]، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصاً من قلبه، وهو أن ينجذب بكليته إليه دخل الجنة؛ [لأن إخلاصه يجذب قلبه إلى الله فيتوب من الذنوب إليه، فإذا مات على هذه الحال دخل الجنة].

وثبت عنه أنه قال: «اخرُج فمن لقيته يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة»[٥]، وقال: «لا يشهد أحد أنه لا إله إلا الله وأني رسول الله فيدخل النار، أو قال: فتطعمه النار»[٦]، وقال: «ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلّا دخل الجنة وإن زنى وإن سرق، إذا تاب وندم قبل الموت وقال: لا إله إلّا الله»[٧]، وقال: «الموجبتان: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله [شيئاً] دخل النار»[٨].

فهذه الأحاديث إنما هي فيمن قالها ومات عليها كما جاءت مقيدة. فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه يخرج من النار من قال: لا إله إلّا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرة. بل كثير ممن يقول: لا إله إلّا الله يدخل النار، أو أكثرهم، ثم يخرج منها.

وتواترت الأحاديث بأنه يحرم على النار من قال: لا إله إلّا الله، ومن شهد أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله، ولكن جاءت مقيدة بالإخلاص واليقين، وبموت عليها، فكلها مقيدة بهذه القيود الثقال.

وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص ولا اليقين، ومن لا يعرف ذلك يُخشى عليه من أن يفتن عنها عند الموت فيحال بينه وبينها.

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) مرّ تخريجه.
(٣) مرّ تخريجه.
(٤) مرّ تخريجه.
(٥) مرّ تخريجه.
(٦) مرّ تخريجه.
(٧) مرّ تخريجه.
(٨) مرّ تخريجه.

وغالب من يقولها إنما يقولها تقليداً أو عادة، ولم يخالط الإيمان بها بشاشة قلبه، وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء، كما في الحديث [الصحيح: «فيقول: لا أدري]، سمعت الناس يقولون [شيئاً] فقلته»[(١)].

وغالب أعمال هؤلاء إنما هي تقليد واقتداء بأمثالهم، وهم أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، [كما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يزالون مدفوعاً عنهم بلا إله إلّا الله ما لم يؤثروا الدنيا على الآخرة، فإذا آثروا الدنيا على الآخرة ردها الله عليهم وقال: كذبتم لستم من أهلها»[(٢)]]، كما قد بسط هذا في مواضع، وبين [فيها] أهل الإخلاص واليقين في توحيد الله من غيرهم.

وحينئذ فلا منافاة بين الأحاديث، فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين، ومات على ذلك امتنع أن تكون سيئاته راجحة على حسناته، بل كانت حسناته راجحة فيحرم على النار؛ لأنه إذا قالها العبد بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحال مصراً على ذنب، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، وأخوف عنده من كل شيء، فلا يبقى في قلبه حينئذٍ إرادة لما حرم الله، ولا كراهة لما أمر الله فهذا [هو] الذي يحرم على النار، وإن [كان] له ذنوب قبل ذلك.

فهذا الإيمان، وهذه التوبة، وهذا الإخلاص، وهذه المحبة، وهذا اليقين، وهذه الكراهة لا يتركون له ذنباً إلّا مُحي عنه كما يمحي النهار الليل.

فإن قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأصغر والأكبر؛ فهذا غير مصر على ذنب أصلاً فيغفر له ويحرم على النار، وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات فيرجح بها ميزان الحسنات، كما في حديث البطاقة، فيحرم على النار، ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه.

وهذا خلاف من رجحت سيئاته على حسناته ومات على ذلك، فإنه يستوجب النار، وإن كان قال: لا إله إلّا الله وخلص بها من الشرك الأكبر، لكنه لم يمت على

---

(١) مرّ تخريجه.

(٢) أبو نعيم في الحلية (٥/ ٣٣ ـ ٣٤)، وهو حديث ضعيف.

ذلك، بل قالها وأتى بعدها بسيئات رجحت على هذه الحسنات، فإنه في [حال] قوله لها مخلصاً مستيقناً [بها] قلبه تكون حسناته راجحة، ولا يكون مصراً على سيئة، فإن مات قبل ذلك دخل الجنة.

ولكن بعد ذلك قد يأتي بسيئات راجحة، ولا يقولها بالإخلاص واليقين المانع من جميع السيئات ومن الشرك الأكبر والأصغر، بل يبقى معه الشرك الأصغر، ويأتي بعد ذلك بسيئات تنضم إلى ذلك الشرك فترجح سيئاته؛ فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين فيضعف بسبب ذلك قول: لا إله إلّا الله؛ فيمتنع الإخلاص في القلب فيصير المتكلم بها كالهاذي، أو النائم، أو من يحسن صوته بآية من القرآن يُختبر بها من غير ذوق طعم ولا حلاوة.

فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل قد يأتون بعدها بسيئات تنقص ذلك الصدق واليقين الضعيف، وقد يقولونها من غير يقين وصدق تام، ويموتون على ذلك ولهم سيئات كثيرة. فالذي قالها بيقين وصدقٍ تام: إما أن لا يكون مصراً على سيئة أصلاً، أو يكون توحيده المتضمن لصدقه ويقينه رجح حسناته.

والذين دخلوا النار قد فات فيهم أحد الشرطين، إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التام المنافي للسيئات أو لرجحانها على الحسنات، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم فضعف لذلك صدقهم ويقينهم فلم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين يمحو سيئاتهم، أو يرجح حسناتهم.

فقول السلف في قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، وقوله: ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩] هي قول: لا إله إلّا الله كما قالوا، وكما بين ذلك رسول الله ﷺ إذا قالها بصدق ويقين ومات على ذلك، فإن هذا يكون قائماً بالواجب، وتكون حسناته راجحة، والسيئة التي من جاء بها كبّ وجهه في النار هي الشرك، فإن الله لا يغفر أن يشرك به، والموجبتان: من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، [ومن يشرك به شيئاً دخل النار].

وكثير من الناس، أو أكثرهم يدخل في الإيمان والتوحيد، ثم ينافق من جهة كسب الذنوب ورينها على القلوب، أو يدخل في نوع من الشرك والنفاق.

والشرك نوعان: أكبر، وأصغر. فمن خلص منهما وجبت له الجنة، ومن مات على الشرك الأكبر وجبت له النار، ومن خلص من الأكبر حصل له بعض الأصغر مع

حسنات راجحة على ذنوبه دخل الجنة، فإن تلك الحسنات هي توحيد كثير مع يسير من الشرك الأصغر، ومن خلص من الشرك الأكبر، ولكن كبر شركه الأصغر حتى رجحت به سيئاته دخل النار.

فالشرك يؤاخذ به العبد إذا كان أكبر، أو كان كثيراً أصغر، فالأصغر القليل في جانب الإخلاص الكثير لا يؤاخذ به، والخلاص من الأكبر ومن أكثر الأصغر الذي يجعل السيئات راجحة على الحسنات فصاحبه ناج، ومن نجا من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله ورجحت حسناته على سيئاته دخل الجنة.

وأما قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ الآية [البقرة: ٨١].

فقال أبو الفرج بن الجوزي: السيئة هنا: الشرك، في قول عكرمة[١]، وابن عباس، وأبي وائل[٢]، وأبي العالية[٣]، ومجاهد[٤]، وقتادة[٥]، ومقاتل[٦].

ولم يذكر خلافاً؛ لأنه اعتقد أن القول [الآخر] يقتضي خلود أهل التوحيد في النار، وليس هو قول أهل السنة، فأعرض عنه كما أعرض في قوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة]، عن قول من قال: تنظر إلى ثواب ربها[٧].

وكذلك البغوي أعرض في هذه الآية عن هذا القول[٨])[٩].

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٦١﴾.

قال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٦١ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾ وقال تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]. وقوله تعالى: ﴿وَنُسُكِي﴾ قد ذكروا في تفسيره: الذبح لله، والحج إلى بيت الله. وذكروا أن لفظ النسك يتناول العبادة مطلقاً. والله سبحانه قد بين في القرآن أن الذبح والحج كلاهما منسك: قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا

---

(١) مرّ تخريجه.
(٢) أثر ابن عباس وأبي وائل مرّ تخريجه.
(٣) ابن كثير وعزاه لابن أبي حاتم.
(٤) مرّ تخريجه.
(٥) الطبري (٢/ ٢٨١ ـ شاكر).
(٦) زاد المسير (١/ ١٠٨).
(٧) مجاهد كما في الطبري (٢٩/ ١٩٢).
(٨) البغوي (٤/ ٤٢٤).
(٩) تفسير آيات أشكلت (١/ ٣٣٥ ـ ٣٦٤).

﴿لِيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٣٤] وقال النبي ﷺ: «من ذبح بعد الصلاة فقد أصاب النسك، ومن ذبح قبل الصلاة فإنما هو شاة لحم عجلها لأهله، ليس من النسك في شيء»[(١)] وقال تعالى عن إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة] فأرى الله إبراهيم وابنه إسماعيل المواضع التي تقصد في الحج، والأفعال التي تفعل هناك: كالطواف والسعي والوقوف والرمي، كما ذكر ذلك غير واحد من السلف.

والصلاة تتناول الدعاء الذي هو بمعنى العبادة، والذي هو بمعنى السؤال. فالصلاة تجمع هذا وهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر] فقد فسر دعاءه بسؤاله، فالنبي ﷺ أمره الله أن يقول: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ فأمره تعالى أن يكون الدعاء لله والصلاة لله) ا.هـ[(٢)].

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾.

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ فالله تعالى أمر نبيه ﷺ أن تكون صلاته ونسكه لله) ا.هـ[(٣)].

وقال رحمه الله: (قال الخليل ـ صلاة الله وسلامه عليه ـ ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

فيجب الإخلاص والصلاة والنسك لله وإن لم يقصد العبد الذبح عند القبر؛ لكن الشريعة سدت الذريعة) ا.هـ[(٤)].

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾.

(أو من اعتقد أن الميت لا يعذب ببكاء الحي؛ لاعتقاده أن قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ يدل على ذلك؛ وأن ذلك يقدم على رواية الراوي لأن السمع يغلط، كما اعتقد ذلك طائفة من السلف والخلف) ا.هـ[(٥)].

---

(١) البخاري (٥٥٠٠)، ومسلم (١٩٦٠).
(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٦٧ ـ ٣٦٩).
(٣) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠).
(٤) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٤٩٥ ـ ٤٩٦).
(٥) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٣٤).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

(قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي يخلف بعضكم بعضاً) ا.هـ[1].

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فجعل المغفرة والرحمة من معاني أسمائه الحسنى التي يسمي بها نفسه فتكون المغفرة والرحمة من صفاته، وأما العقاب الذي يتصل بالعباد فهو مخلوق له، وذلك هو الأليم، فلم يقل: وإني أنا المعذب، ولا في أسمائه الثابتة عن النبي ﷺ اسم المنتقم، وإنما جاء المنتقم في القرآن مقيداً كقوله: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢] وجاء معناه مضافاً إلى الله في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧] وهذه نكرة في سياق الإثبات والنكرة في سياق الإثبات مطلقة ليس فيها عموم على سبيل الجمع) ا.هـ[2].

❁ ❁ ❁

(١) الاستغاثة (١٦٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٧/ ٩٤ ـ ٩٥).